الجسر القديم

عادل صوما

الجسر القديم
Ponte Vecchio

دار الفارابي

الكتاب: الجسر القديم
المؤلف: عادل صوما
الغلاف: قدّم لوحة الغلاف الفنان الإيطالي دومنيكو كولانتوني
تصميم الغلاف: فارس غصوب
الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 1107 2130

الطبعة الأولى 2002

ISBN: 9953-411-72-7

جميع الحقوق محفوظة

DAR AL FARABI
(Société Libanaise des Imprimés s.a.l.) Beyrouth - Liban
Tel: (01)301461 – Fax: (01)307775 – P.O.Box: 3181/11
Code Postale: 1107 2130
e-mail: farabi@inco.com.lb

مقدمة

لقد عبرت الإنسانية منذ بداية الخليقة عدة جسور حتى وصلت إلى ما هي عليه اليوم من تمدّنٍ. لكن يبدو أن البشر بدأوا حرق معظم المعابر التي مروا فوقها، وأنهم على وشك بداية عصر جديد من المسوخ المتشابهة، والأذى الرهيب لما صنعوه منذ وجود الكائن المنتصب القامة فوق الكوكب، وحياة القلق والضغط العصبي من الطفولة حتى الشيخوخة.

تناول عادل صوما أحد هذه المعابر الإنسانية، وجعلها موضوع قصته "الجسر القديم"، أو مثلما بادر بسابقة تعتبر الأولى من نوعها في الأدب العربي ـ حسب ما أعلم - حيث كتب على غلاف هذه الرواية الرقيقة ترجمة العنوان باللغة الإيطالية «Ponte Vecchio» الموجود في مدينة فلورنسا والذي يعتبر من أهم معالمها السياحية.

وقد انفعل معه، ومع روايته، أحد فناني الصف الأول

في إيطاليا، في القرنين العشرين والواحد والعشرين، إنه الفنان دومنيكو كولانتوني، الذي رسم له غلاف قصته المؤثرة، واختار مثله، أيضاً، أن يكون "الجسر القديم" هو العنوان الثاني المصوّر للرواية.

لا شك عندي بعد قراءة القصة في أصالة النسب بين مؤلفها وحضارات البحر المتوسط، لأنه لا يقدر على كتابة مثل هذه الرواية غير ابن محبّ بار بأمه مُقدر لأهميتها بين أمهات أخريات. لذلك، فإني أشكر موظفي أقسام إدارة الهجرة من كاليفورنيا إلى واشنطن، الذين رفضوا طلب الهجرة الذي تقدم به عادل صوما، وأعادوه إلى مكانه في حوض الحضارات القديمة.

بدأ الروائي روايته بشكل غير متوقع مطلقاً، وختمها بإبراز أهمية قيمة الحوار والتفاهم بين الناس. لقد كتب أحداثها بروح مؤلفي الموسيقى الكلاسيكية الذين يكثفون الجملة الموسيقية أحياناً، ويسرعون بالإيقاع أو يبطئونه في الحركة الواحدة. وأحدث بين أول صفحة وآخر صفحة تغييراً جريئاً في مفهوم الشخصيتين الرئيسيتين التقليديتين في روايات الحب، وأدوار البطولة بين الشخصيات لدرجة أن القارئ يسأل عن أحدهم إذا غاب أكثر من عشر صفحات، وأظهر الطبيعة المغامرة للشعب اللبناني.

يهتم مصممو البنايات في حضارة البحر المتوسط

بالنوافذ والشرفات، لجعل الحرارة والرطوبة طبيعية داخل المنزل، ولعدم بتر الصلة بين الإنسان داخل بيته والعالم الخارجي. إذاً، هناك تناغم موجود بين الداخل والخارج؛ وفي هذه الرواية يوجد الكثير من النوافذ والشرفات والتناغم. وبالاستناد إلى ما تقدم أؤكد أنني قد تأثرت كثيراً بهذه الرواية، وشعرت أن كاتبها، أعطاني مفتاحاً وتركني أبحث عن القفل.

باولا كاسكوني
قسم الدراسات الشرقية - جامعة نابولي

١

لم يدرِ طارق زيدان سبب ذلك الدافع الخفي الذي جعله ينظر خلفه، رغم استغراقه في الحديث مع أحد وكلاء المواد الغذائية، وذلك خلال الاحتفال بإطلاق عطر جديد مستورد، لرجل أعمال صديق لهما، والمالك لعددٍ مهم من وكالات العطور وأدوات ومساحيق التجميل، إضافة إلى أصوات الرجال الذين كانوا يتحدثون حولهما، وضحكات النساء وثرثرتهن المتناثرة، في إحدى قاعات فندق ذات خمسة نجوم، وبالإضافة، أيضاً، لتحركات المصورين الذين يصطادون اللقطات المتنوعة، لصفحات المجلات الاجتماعية والفنية؛ في هكذا مناسبة تجمع أكبر قدر ممكن من الوجهاء والمتمولين، الذين جاؤوا لمجاملة صاحب الحفل، لأنه سبق وجاملهم، وتحركات كاميرتي فيديو تسجلان ما كان يحدث بالصوت والصورة.

وبمجرد أن التفت، وقع بصره على فتاة تقف بين عدد

من الرجال والسيدات، وكان أشدّ ما أثار انتباهه، عدا وجهها الجذاب الناطق بالحيوية، هو حركة عينيها وهي تنظر إليه؛ لقد كانت تتأمل بذلته من الخلف صعوداً ونزولاً، وتوقفت بنظراتها عند حذائه طويلاً.

اعتدل طارق باتجاه محدثه مرة أخرى، لكن بفكر مشتت، حتى عن موضوع حديثهما في تلك اللحظات، الذي لم تقطعه هذه الحركة العابرة منه. كذلك لم يستطع مقاومة إلقاء نظرة على حذائه، الذي استحوذ على انتباه العينين الموجودتين في وجه يشبه أيقونة للجمال والأنوثة. فابتسم بدون مبرر، من الحوار الدائر، عندما تذكر أن آخر ما وجهت عينيها نحوه كان وجهه. لكنه سرعان ما استعاد تركيزه مرة أخرى، وبدأ يصغي بانتباه وفهم إلى رفيقه في الحفل، وكأن ما حدث لم يكن أبداً.

قال الرجل الأكبر عمراً لمحدثه الشاب، وهو يقترب بوجهه منه:

ـ بيني وبينك، أنا لا أعرف لماذا تقام مؤتمرات صحافية في هذه المناسبات. لم تكن تجري هذه الأمور أيام شبابي.

ـ يا عم محمد، لقد تغيرت العادات. والإعلام يسجل ويواكب كل شيء تقريباً اليوم.

ـ عقلي وعقل أبيك لا يستسيغان الأمر. هل تستطيع

بذهنك العصري أن تفسر لي حضور رئيس وزراء إلى مطعم هامبورغر لافتتاحه وسط جيش من المصورين؟

ـ ربما صاحبه من كبار رجال الأعمال.

ـ ومنصب رئاسة الوزراء وهيبة الموكب بحّد ذاته؟

ـ يجوز أن صاحب هذا المطعم صاحب نفوذ اقتصادي، أو صاحب سلسلة مطاعم تحمل الاسم نفسه.

سكت محمد دياب فجأة عن الاسترسال في الحوار، وبدأ يضحك ورأسه نحو الأسفل، ثم عاد وأرجعه إلى الخلف بحركة لاإرادية، ودخل في نوبة من الضحك والسّعال المتقطع، جعلت المدعوين ينظرون إليهما بانتباه وحشرية، حتى أن بعضهم أصابتهم عدوى الضحك فابتسموا هم أيضاً. ولمّا انتبه محمد إلى فضول الناس من حولهما، اقترب برأسه من طارق وهمس له:

ـ أو رئيس الوزراء نفسه هو صاحب امتياز هذه السلسلة من مطاعم الهامبورغر.. عولمة كما ترى، ويقولون عنها...

وأكمل نوبة الضحك التي استحوذت عليهما معاً. واقترب طارق برأسه هذه المرة من اذن، عم محمد، وقال هامساً، وهما يبدوان كمراهقين شقيين غير عابئين بفضول الناس:

ـ هل تعلم أن رنين كلمة هامبورغر في حديثنا هي الأمر المضحك؟

ـ حلوة كلمة رنين هذه.. أتمنى لو كان لي ابن ينوب عني في مثل هذه المناسبات. كلهن بنات. قال محمد بين ضحكه وسعاله.

ـ مثلما يفعل أبي؟

ـ الحق معه، خصوصاً بالنسبة لعمره الذي لا يريد الاعتراف به. بالمناسبة.. هل تريد أن تشرب شيئاً لأنني عطشان

ـ أكيد..

ـ لنذهب إلى طاولة المشروبات.

نظر طارق إلى حذائه مرة أخرى قبل أن يتحركان، وإلى المكان المفترض أن تكون الأيقونة الجميلة واقفة فيه، ولم يجدها.

اتسعت دائرة المتحدثين حول محمد وطارق قرب موائد المقبلات والمشروبات بأنواعها، وضمت بضع فتيات من اللاتي يفتشن عن عريس في مثل هذه المناسبات، ويجدن في طارق وأسرته أملاً طيباً لو تحقق.

لكنهن لم يجدنه كما تعودن عليه في تلك الليلة، على الأقل بالنسبة للمسايرة الاجتماعية أو للمجاملات التي تعودن سماعها منه، ولم يكن يعرفن سبباً لسعادتهن بها،

رغم يقينهن ـ منفردات ـ أنه يقولها لكثيرات. لقد شعرن بغياب مزاجه المحبّ للمناوشات الغرامية في تلك الليلة.

كان طارق مشغول البال، كما شعرن، عن أيّ منهن، بما قاله أبوه له عن حياته منذ يومين، وإصراره على تنبيهه إلى خطورة الفراغ الذي يعيش فيه. ولم يخرجه من حالته تلك سوى محمد دياب رفيقه في الحفل وملاحظاته الساخرة.

ـ لقد كان عمري واحداً وأربعين سنة عندما تزوجت، ولا أريد تكرار الأمر معك. عبارة رددها أبوه كثيراً في الفترة الأخيرة.

ـ وهل تعتبر عمر السابعة والعشرين يستحق كل هذه المشاحنات بيننا؟

ـ نحن ميسورون مالياً، وهالة "دون جوان" الأعزب لن تفيدك في المستقبل.

ـ ولماذا تصرّ عليّ أنا؟ لماذا لا تقول ذلك لأخي؟

ـ صحيح أنه في التاسعة والعشرين، لكنه مجرد تلميذ يتخصص في جراحة القلب.

ـ وأنت أبو الاثنين.. المليونير.

ـ طارق.. أرجوك.. أنت بدأت حياتك العملية، والمؤسسة التي أملكها هي مؤسستك في يوم من الأيام،

والباقون يملكون حصصاً فيها.. أنت تعلم ذلك، وتعلم أعمارهم.

ـ لا سبب واضحاً يجعل موتك قريباً. وأنت رسمت طريق كل واحد منّا في الحياة، فلا تتدخل بموضوع الزواج.

ـ لم يحدث. كل منكما اختار الطريق الذي يناسبه ويحبه.

ـ.....

ـ وأنت مخطئ. لقد ربيتكما لتقفا أمامي كندّين، وليس مجرد ألعوبتين صغيرتين لا تكبران.

ـ سأفكر في الأمر.

ـ من جوانبه كافة.

أخذ محمد وطارق يتحركان في حفل الاستقبال، بين دائرة بشرية وأخرى، كعادة أي مشترك فيها، وهما يردان التحية أو يتجاذبان أطراف الحديث، العابر في هكذا مناسبات، مع المدعوين. ورغم فارق العمر بين محمد دياب وطارق، فقد كانا يأنسان لبعضهما بعضاً في مثل تلك الحفلات.

كان محمد حسين دياب متوسط القامة، حنطي اللون.. ذا شعر فضي خفيف، يكسو كل رأسه لكنه لم يكن أصلع. نحيف ذو عينين سوداوين تنظران إلى محدثه وكأنهما

تحددان أبعاد كل شيء من حوله. نظرة مهندس معماري إلى خريطة بناء. ينطلق بعفوية في الحفلات، ويحاول أن يجعلها مناسبة يجدد فيها نشاطه؛ يوحي الموقف له بنكتة فيسرع في قولها، ويضحك أحياناً قبل أن ينهيها.

ووجد طارق نفسه بين مجموعة من الناس تقف الأيقونة الجميلة بينهم، ما جعله يشاركهم الحديث، ويشعر بعد دقائق بمزيج من الكمال المجبول بالغموض يصدر عنها. شعر، ولم يدر لماذا، إنه يتنفس بعمق وهو ينظر إليها، ولأول مرة في حياته، شَعَرَ أنه مرتبك من نظرة امراة مباشرة في عينيه، هو الراكض وراء تلبية نزواته منذ سنوات مراهقته الأولى.

مرتبك من حرارة كونية احتوت جسمه كله وانتشرت في أعصابه، وجعلت عينيه وأذنيه تعمل بطريقة مختلفة لم يعرفها من قبل، وحولته بالتدريج إلى مجرد حواس خمس، منفصلة عن جسمه، كإنسان من لحم ودم وهيكل عظمي.

لاحظ طارق أن معظم الناس تحييها بابتسامة خفيفة، أو بالمصافحة والمناداة بالاسم، وزاد بعضهم بالقول:

ـ نحن نشاهد برنامجك الجميل.

ـ يعطيك العافية.. نحن نتابعك باستمرار.

أو غيرها من العبارات التي جعلته يفهم أنه أمام

مقدمة برامج تلفزيونية معروفة، لكن ذاكرته لم تسعفه بأية معلومة أو صورة من الذاكرة عنها، بين صور المذيعات اللاتي، يعرفهن من خلال متابعته للشاشة الصغيرة، في الأوقات القليلة التي يشاهد فيها التلفزيون. وعندما تذكّر إمكانية مساعدة صديق والده ومرافقه محمد دياب لمعرفة اسمها وأين تعمل، تنبّه إلى وجوده على بعد عدّة أمتار منه، في دائرة بشرية أخرى.

وفوجئ بسؤال منها لم يتوقعه، أنزله من عالم الخيالات والمشاعر المختلفة التي كانت تتناوب عليه.

ـ هل تعلم يا سيد طارق، وبدون أي مجاملة، أن عرض تقسيط ثمن السيارة في شركتكم هو الأفضل، حتى بالنسبة لأوروبا؟

وأدهشه معرفتها لاسمه، الذي لم يناده أحد به أثناء الحديث، وعمله أيضاً. ورّد عليها من خلال دهشته بالقول:

ـ لأننا شركاء أحد المصارف المهمة في استيراد النوع الذي تقصدينه، ما ينعكس على التسهيلات التي تعتبرينها هي الأفضل.

ـ وهل يمكنني استبدال سيارتي بأخرى جديدة، رغم أن ماركتها مختلفة عن ماركتكم؟

ـ الأنسب والأسهل لنا هو استبدال من الماركة

نفسها، ولكن قد يتدخل العنصر الشخصي أحياناً، أو حالة السيارة المستبدلة.

ـ وإذا كانت الواسطة صاحب الشركة نفسه؟ قالتها بابتسامة خفيفة.

ـ انتبهي.. أنا لست صاحبها بل الوالد. ردّ عليها بعفوية.

ـ وما الفرق بينك وبينه؟ سألت بنظرة عدم تصديق.

ـ كبير. وهو يخطف نظرة مباشرة من عينيها ولأول مرة.

ـ في العمر؟ (ممازحة)

ـ وفي أشياء أخرى. (ضاحكاً)

ـ استعمالي لسيارة من شركتكم دعاية لها.(وهي تخلط بين المزاح والجد)

ـ أكيد، لكن أنا بعيد عن البيع والمحاسبة والأقساط. أعمل في قسم الصيانة.

ـ تعمل..(وهي مندهشة من طبيعة عمله)

وقاطع هو تساؤلها في بدايته:

ـ نعم، ويمكنني من هذه النقطة أن أساعدك.

نظرت هي إليه هذه المرة بشكل كلّي، ولم يفهم كيف استوعبته بنظرة واحدة رغم قرب المسافة بينهما، وقالت:

ـ اتفقنا.

وعادت خطوط الأحاديث بين الواقفين تتشابك، أو هكذا خيُل إليه بعد كلمة "اتفقنا"، لأنه لم يكن يسمع شيئاً غير كلماتها. وابتسم ابتسامة داخلية لم يرها سواه، وأخذ يتنفس بعمق مرة أخرى، وسأل نفسه وهو يستعيد الحوار بينهما:

ـ لماذا استعلمت عني؟

وتساءل بعد لحظات أخرى:

ـ ولماذا لا تغني؟ صوتها جميل جداً.

انتبه طارق لبعض الأصوات النسائية الفزعة من حوله، والحركة غير العادية التي تحدث في قاعة الاستقبال الكبيرة، قريباً من المكان الذي يقف فيه، رغم استغراقه في أحاسيسه الداخلية، وسمع أحدهم يسأل عمّا إذا كان هناك طبيب بين الحاضرين.

ونظر طارق بشكل تلقائي إلى المكان الذي تتجه إليه عيون الموجودين، ولمح رجلاً ممدداً على الأرض، وتبيّن له في جزء من الثانية أنه محمد دياب. واندفع في الجزء التالي منها باتجاهه، وكأنه نمر ضخم الحجم رشيق الحركة، يطير من أمام رصاصة سمعها تنطلق باتجاهه في الغابة، وبدأ يبعد المتجمعين حوله بصوت ذلك الحيوان الضاري:

ـ ابتعدوا.. ابتعدوا من فضلكم.. الرجل يحتاج إلى هواء.

وجثا على ركبتيه بجانبه وهو يفكّ ربطة عنقه، وبعدها أزرار قميصه بسرعة كبيرة، بينما كان ينادي على نادل ويفتش عنه بعينيه، فوصل أحدهم مسرعاً وانحنى حتى مستوى رأس طارق، الذي همس له بشيء، فأسرع النادل إلى الباب الذي يأتون منه بالطعام، وعلى وجهه إمارات الدهشة.

وبدأ طارق يقول لصديق والده، وللعائلة، أيضاً، كما بدا ذلك واضحاً للجميع، الراقد على الأرض، وبصوت منخفض مسموع للقريبين منهما فقط:

ـ لا تذهب.. أنا بجوارك.. أصمد.. حاول التنفس بانتظام وساعدني.

وعاد النادل مندفعاً بين الناس المذهولين، غير المدركين لما حدث في ثوان، وبيده سلاّكة بالوعات كبيرة الحجم نسبياً.

أمسكها طارق بكل ثبات، ووضعها فوق منحنى القفص الصدري تماماً للرجل الممدد، وضغط بشدّة ونظر بعدها إلى صدره، ولمّا وجده شبه ساكن، كرر ما فعله وبالقوة نفسها مرتين، ثم اقترب من أذنه وقال له بنبرة الصوت نفسه:

ـ إصمد.. تنفس.. تنفس بانتظام..

وكرر ما فعله مرتين أخريين، ونظر إلى صدر محمد دياب، وبعد ذلك إلى المحيطين بهما وشبه ابتسامة تعلو فمه:

ـ أرجوكم.. بدأ الرجل يتنفس بشكل طبيعي.. إبقوا بعيدين قليلاً.

ولاحظ طارق أن أيقونته الجميلة تقف بين أوائل المتجمهرين حولهما، وبجوارها مصوّر يحمل كاميرا فيديو، وعاد ينظر إلى محمد دياب الذي بدأت الحركة في عينيه وشفتيه، وبمجرد أن انتبه لطارق الموجود بجواره سأله وهو ينظر للناس من حولهما:

ـ ماذا حدث يا طارق؟

ـ قل لي أنت ماذا حدث؟

وردّ محمد دياب بعد ثوان من استرجاع ما حدث:

ـ جاءت فتاتان منذ فترة قليلة، فمشيت معهما بشكل عجيب إلى شرفة بعيدة، لا نراها من هنا، وأنا مذهول جداً من الطريقة التي جاءتا بها، وعدم وجود سبب للمشي معهما، وعندما سمعت صوتك بوضوح رجعت وتركتهما.

ـ هكذا ببساطة؟

ـ كما أقول لك.

وبعد ثوان من التأمل، قال محمد دياب وإمارات الدهشة على وجهه:

ـ ما هذا؟ من الذي فتح قميصي بهذه الطريقة؟

ـ ربما الفتاتان. قال طارق.

وضجت القاعة بالتصفيق، وبدت الدموع في عيون بعض النسوة، بينما كان طارق يساعد محمد دياب وهو يحاول النهوض عن الأرض.

ـ هل تصدق يا طارق أننا صوّرنا ما حدث لحظة بلحظة وكلمة بكلمة؟ قالت الأيقونة الجميلة.

ـ مشاهد نادرة لرجل كاد يفقد حياته.

ـ ما الذي ألهمك لتفعل ما فعلته؟ سألته بعد لحظات.

ـ ليس إلهاماً. سمعته من أخي ذات مساء على أنه وسيلة بدائية قد تساعد القلب على ضخ الدماء مرة أخرى، ففعلت ذلك وكأنني مسيّر بكلماته.

ـ وبجرأة نادرة على اتخاذ قرار كهذا أيضاً.

ـ لم يكن لديّ أي مهرب.

وحاولت هي بحشرية أي صحافي محترف، سؤال محمد دياب عما رآه، لكن طارق طلب منها تأجيل أي تساؤل في الوقت الحالي حتى يستعيد نشاطه. وأتى صاحب الحفل وانضمّ إلى الأشخاص المتجمهرين الواقفين، وهنأ محمد دياب على سلامته، وطلب من كل

المدعوين التوجه إلى القاعة المخصصة للعشاء، ريثما يستعيد الرجل وعيه تماماً ويلحق بهم. وبدأ المدعوون في الذهاب، واتجه طارق ومحمد بصحبة الأيقونة الجميلة والمصوّر الذي يرافقها إلى إحدى الزوايا في بهو الاستقبال الكبير، وجلسوا وهم يشربون العصير، ليصحب طارق بعد ذلك محمد دياب إلى منزله، بعد أن يتأكد أخوه الطبيب روبير من صحة صديق العائلة، في الفندق، وقبل أن يعود إلى منزله.

أكدّ دياب للصحافية المتلهفة لمعرفة حكاية الفتاتين، وتصوير ما يقوله، أنه لا يدرك تماما التفاصيل الصغيرة لما حدث، وما يعيه هو أنه في لحظة مباغتة، بدا له بوضوح أنه يعرف أين يقف في الكون، وليس في القاعة التي يقف فيها فقط، وأحس في اللحظة نفسها أنه فقد الإحساس بالزمن والوقت تماماً، وبدأت ألوان الأشياء من حوله تأخذ لوناً واحداً تقريباً هو اللون الزهري.

ثم أتت الفتاتان اللتان اقتربتا منه، فظنهما في البداية من الأشخاص المدعوين لحضور الحفل، فسار معهما بشكل لا يمكنه وصفه نحو الشرفة بحيث كان يتملكه إحساس غريب، هو مزيج من عدم الانتماء للمكان الذي فيه، إضافة إلى الخفة والنشاط الملحوظين اللذين سريا في كل أوصاله.

وعندما سمع طارق يناديه، رغم أنه لم يعد يراه، عاد أدراجه إلى مكان الحفل بدون استئذان أو أي كلام مع الفتاتين، كما ذهب تماماً. وأحس في طريق العودة أنه مرهق، وكأنه سار مسافة طويلة على أرض وعرة، وبدون أن يشرب، كما بدأ يحس بلعابه في فمه.

ـ هل رأيت أي شيء من الشرفة؟ سألته المذيعة.

ـ مطلقاً. قال محمد دياب بعد تفكير.

ـ يا سيد محمد.. ماذا قصدت بعبارة "مكانك في الكون"؟

ـ إحساسي بكل شيء من حولي، بدءاً من القاعة التي أقف فيها، لبيروت، إلى كوكبنا الأرض، فالكون. وكأن كل شيء واحد.

ـ هل تؤمن بوجود حياة أخرى؟

ـ نعم. حسب القرآن الكريم.

ـ وحسب التجربة التي خضتها اليوم؟

ـ شيء مثير فعلاً. لا أعلم لماذا أحسست أنني يجب أن أعود (وبعد تفكير) لقد وقفت تماماً عند الشرفة.

ـ وكيف، وفقاً لإحساسك، كنت ستغادرها؟

ـ كنت (وهو يستعيد من ذاكرته ما حدث) أسير كالفكرة في الدماغ. لم أحس أنني أمشي على الأرض.

ـ لكنها تجربة مهمة على أية حال؟

ـ مذهلة. لأنني بعدما أدركت ما حدث تماماً الآن، لم أعد أعرف من الذي كان مستلقيا على الأرض، ومن الذي سار مع الفتاتين إلى الشرفة، وكيف كنت سأتركها؟

ـ هل تظن أننا سنلتقي بعد ذلك؟ ربما لنتكلم بعد مرور فترة على هذه التجربة..

ـ أتمنى ذلك.

ـ وهل تسمح لي باستخدام كل ما سجلته الكاميرا كمادة إعلامية؟

ـ أكون سعيدا جداً.

ـ وكيف أخبرك بموعد عرضها؟

ـ إنني أتابعك أسبوعياً.

ابتسمت هي لمشاهدها وطارق وصافحتهما، وانسحبت بهدوء بعدما استأذنت منهما لتتابع الحفل، وذهبت باتجاه قاعة العشاء، بينما جلسا هما في انتظار روبير ليفحص محمد دياب للاطمئنان، بعدما طلب من أخيه طارق عبر الهاتف عدم مغادرة الفندق، لأن حالته يمكن أن تكون تحضيراً لأمر أسوأ، أو تكون مجرد أزمة عبرت.

وبعد الفحص الأولي سأله روبير عمّا إذا عاد لتدخين سيجارته اليومية صباحاً مع القهوة.

ـ إنني لم أعد أذهب حتى إلى محل يبيع السجائر أو النشوق.

ـ أجهزتي ومعنوياتك يقولان لي إنك بخير، ولا داعي للذهاب إلى المستشفى.

وبينما كان محمد وطارق يغادران الفندق سأله طارق:

ـ على فكرة.. ما اسم هذه المذيعة؟

ـ كارول أبو النصر. قالها محمد دياب، وكأنه لا يستوعب أن طارق لا يعرفها.

بدت كارول كطيف رائع مرّ في فضاء تلك الليلة المشحونة بالتوترات على أنواعها كافة. وأخبر محمد صديقه طارق وهو يعود به إلى منزله، لأن روبير منعه من قيادة سيارته في هذه الأمسية، أنه يشاهدها في إحدى الفضائيات العربية، وأبدى دهشته لأنه لا يعرفها.

ـ إنها تعمل برنامج منوعات يعرفه الكثير من الناس ويتابعونه، وبلمسة نسائية تخفف من حدّة أخبار الكوارث التي تلاحقنا سياسياً وبيئياً وإرهابياً.

ـ يبدو أنك أصبحت في أفضل حال؟

ـ لأنني ذكرت الكوارث؟ سأغيّر الموضوع. هل تصّدق أنني لم أشعر بأي ألم أثناء ما حدث في الفندق.

ـ أمر مطمئن، سنموت بدون وجع عكس ما يشيعون.

ـ وقد نسيت طلب نسخة منها عن الدقائق العجيبة هذه.

ـ.....

ـ سأسجلها مع البرنامج. كما نسيت أن أشكرك على ما فعلته.

ـ أنا لم أفعل شيئاً. عمرك والحظ هما الفاعلان.

ـ أريد أن أسألك بماذا شعرت فعلاً؟

ـ أنا؟

ـ نعم.

ـ شعرت أنك لا يمكن أن تذهب بهذه البساطة، ومن خلال هذا الإحساس فكّرت في أقل من لحظة بما فعلته. لا أعلم كيف كنت على يقين أكيد أنك سترجع.

ـ لن أنسى صوتك وأنا واقف في تلك الشرفة.

ـ لماذا؟

ـ سمعته آتياً من مكان بعيد.. أبعد بكثير جداً من أي شرفة أو قاعة رئيسية في أي فندق.

٢

تمرّ الأيام على معظم الناس متشابهة الإيقاع والبدايات والنهايات، ويظنون أن ذلك سيستمر إلى ما لا نهاية. وقد يأتي حدث أو إنسان يغيّر أداءهم وإحساسهم.

لم يكن ممكناً أن تمرّ تلك الليلة على محمد دياب، ويذهب لينام خلالها كما تعوّد ذلك منذ ليال وسنين، بعدما سيطر عليه إحساس عند عودته إلى المنزل يؤكد له أنه اقترب من اليقين في لحظة مباغتة. يقين الإنسان من معرفة نفسه كما هي، بغض النظر عن الاسم وما يملك والمكانة بين الناس، وإدراك مصيره بعد حياته على الأرض بشكل عملي.

أحسّ أنه تحرر من أمور كثيرة كانت تؤرقه أحياناً، خصوصاً سؤال المتقدمين في العمر، الداخلي الحميم، عند حضور مراسم وفاة قريب أو صديق له: متى يأتي دوري؟ والإحساس بعبثية كل الأفعال والأحاسيس التي

اختبرها الإنسان أمام الحفرة المفتوحة لاستقبال مقيم جديد.

كانت أمنيته منذ مطلع شبابه أن يتزوج امرأة أوروبية فحقّق حلمه، واكتشف بعد ذلك أن البشر متشابهون. وسعى لتحقيق ثروة، ثم تعوّد على ما أنجزه، ولم يزل في خضم المشاكل التي سببتها ثروته، ولم تعد النقود التي تجلب نقوداً تثيره كما كان يحصل في السابق.

تحوّلت ابنتاه إلى جزءين من حياته يعايشهما بشكل دائم، سواء من تزوجت وأسست بيتاً جديداً، أو الصغرى التي تعيش معه ولم تتزوج بعد. وأحس أن حياته قد اضطربت بشدة مخيفة بعد وفاة زوجته، وأن الحزن عليها لن ينته، ثم حولت الأيام والمشاغل غيابها إلى عادة، والحزن الكبير عليها إلى ذكرى.

تلاشت عوامل الإثارة بفعل المعايشة وتقدم العمر والامتلاء من سخافات البشر، إلى أن أتته تلك اللحظة المباغتة التي غيّرت حتى رؤيته للألوان، لتهمس له بمعان كان أهمها بالنسبة له، أن لا شيء متروكاً أو مهملاً في الكون، حتى أضعف المخلوقات وأتعسها.

لم يعرف سبب إحجامه عن رواية ما اختبره لأبنته، التي كانت تنتظره كالمعتاد، ولم يقل لها حتى إن أزمة قلبية قد فاجأته في الحفل، وكان في نيته أن يتصل بزوج

ابنته الكبرى الذي يدير عمله، لكي يصطحبه في الغد إلى العمل، بحجة أن سيارته قد تعطلت ليلاً.

وساعدته حقنة الدواء التي أخذها في الوريد، على النوم العميق حتى ساعات الصباح الأولى، وبدون أي قلق في الليل، أو استيقاظ مبكر قبل الفجر، كما تعوّد بعد دخوله ستينات العمر.

أما طارق فقد كان حتى اللحظة التي رأى فيها كارول، يعيش حياة شاب في السابعة والعشرين بكل تفاصيلها الحيوية المثيرة، وتقف المؤسسة التي أنشأها أبوه كالحصن المنيع له، وللعائلة، من الأزمات التي يعايشها من هُم في مثل عمره في دول العالم السادس.

كان طارق يعمل في وكالة بيع إحدى السيارات الأسيوية التي يمتلكها أبوه، كما قال لكارول، في قسم الصيانة الميكانيكية، بعد أن بدأ في قسم الصيانة الهيكلية. وقد تعمد أبوه ذلك ليفهم تفاصيل العمل كافة، حتى يصل إلى كرسي المدير العام في يوم من الأيام، وهو يعلم تماماً ماذا يحدث في كل قسم، وتكون له القدرة على مناقشة وفهم ما يُقال له.

عمل طارق بيديه، ولم يقف في هذين القسمين كابن صاحب المؤسسة ، كما لم يكن صاحب قرار في أي

قسم منهما. وكان أبوه يتابعه من خلال رؤسائه، ويوجّهه أحياناً إذا سمع أي نقطة ضعف حول عمله وأدائه.

عاش طارق بعيداً عن مدرسة العمل هذه، كشاب يلبي كل نزواته، ولم يصل إلى مرحلة الإدمان بالنسبة إلى أي إغراء من الإغراءات التي يركض الشباب خلفها، ما عدا تلك المرأة التي أحبها وسعى إليها وقدّر جمالها ومواهبها المختلفة تماماً عن الرجل.

ألهمته غريزته أنها لا يمكن أن تكون مثل الرجل، لذلك أحب هذا الكائن المختلف كما هو، كما أحبته المرأة لروح الدعابة والوسامة والكرم التي يتحلى بها.

لم يفكر طارق في الزواج، ولم يسع له، وكان يستمع إلى أبيه وهو يكلمه عن العائلة وأهمية الزواج والأطفال في حياة الإنسان ومستقبله، ولا يستوعب كيف تتم هذه الأمور، ولا كيف يمكن أن يتزوج الإنسان من خلال حياته هو التي يعيشها.

استمع إلى أبيه بكل انتباه، وناوشه في الشهور الأخيرة بالقول أن كل شيء يأتي في وقته، وأنه لن يفكر في الزواج إلا بعد عمر الثلاثين، وكان لأبيه رأي آخر.

لم تخرج كارول عن الدائرة الوجدانية التي يتعامل من خلالها مع المرأة، في اللحظات الأولى من لقائهما، لكنه لم يعرف على وجه الدقة ماذا يسمّي الإحساس المختلف

المتميز الذي انساب في داخله وهو يكلمها، إضافة إلى انجذابه إليها كفتاة جميلة.

تساءل طارق في ما بينه وبين نفسه عن سبب عودة كارول معه إلى المنزل في خياله، كما توقف كثيراً عند تفسير قيامها من أمام مائدة العشاء بين ضيوف الحفل، عندما رأته واقفاً على باب القاعة، وهو يبحث بعينيه عن شيء ما قبل أن يعيد محمد دياب إلى منزله، وذهابها إليه عند الباب، والاطمئنان على رفيقه، والسير معه في الردهة مسافة لا بأس بها، إلى أن طلب منها العودة إلى الحفل.

ـ هل أنت جميلة دائماً كما في هذه الليلة؟ قال لها وهو يصافحها مودعاً.

ـ كم عدد الفتيات اللاتي قلت لهن هذه العبارة؟ فاجأته هي بهذا التساؤل، وهي تقوله بكل ثبات وهدوء مُغلف بابتسامة فيها ارتياب.

سكت هو لعدّة لحظات، وهو ممسك بكفهّا، ثم قال:

ـ كثيرات.

وتحولت ابتسامة كارول إلى ضحكة خفيفة متقطعة وقالت:

ـ وهل تكررها كجهاز التسجيل كلما رأيت فتاة جميلة؟

ـ مع فارق كبير، هو أنني أقولها الليلة وكأنها المرة الأولى.

ـ .....

ـ ومضطرب أيضاً.

لم تقل كارول أي كلمة تعقيب، وعضت شفتها السفلى وهى تستمع، ثم سحبت كفهّا من بين أصابعه واتجهت إلى القاعة ووصلت إلى مائدتها بدون أن تلتفت إليه، في حين ظلَّ هو واقفاً إلى أن جلست، وعاد ليصطحب محمد دياب إلى منزله.

ـ أين ذهبت وتركتني في بهو الاستقبال؟ سأله محمد دياب وهما في طريقهما بسيارة طارق.

ـ لأسلّم على كارول.

ـ سامحتك على غيابك. بالمناسبة.. هل لا يعرف أحد كارول أبو النصر غيرك؟

ـ هل هي مشهورة لهذه الدرجة؟

ـ أكيد. كل الذين يتابعون... على فكرة: هل أنتم مشتركون في مجموعة الفضائيات العربية؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ تعتقد؟ ومن الذي يؤكد؟

ـ أمي.

ـ أمك البرازيلية؟

ـ إنها تتكلم اللغة العربية وتفهمها بإحساس أكثر مني ومنك.

ـ اسألها، وتابع كارول أبو النصر.

ـ هل هي وصفة دواء؟

ـ أنا أتكلم جدياً يا ولد.

ـ وأنا أيضاً (وهو يضحك).

ـ على فكرة.. كيف تثقف نفسك، بالإضافة إلى نشاطاتك الأخرى؟

ـ هل أبدأ بالنشاطات؟ (وهو يبتسم).

ـ أعرفها. أتكلم عن الثقافة.

ـ الصحف والكتب والموسيقى. أحب الموسيقى كثيراً.

ـ بالوراثة. فيك جينات من الشعب الراقص.

تعود صداقة محمد دياب ومجيد والد طارق إلى حوالى عشرين سنة مضت، ولم تؤثر الحروب التي حدثت في لبنان منذ العام 1975 حتى 1990 على حرارتها أو استمراريتها. كانا يتبادلان الزيارات كلما سنحت الظروف الأمنية بذلك، وينهيان لقاءهما بعبارتين أزليتين لم يعتقدا أنهما سيكفّان عن ترديدهما:

ـ مش رح نخلص بقى؟

ـ إن شاء الله على أيامنا.

بدأت معرفة الصديقين في حفل كوكتيل خلال أحد

الأعراس، وكان أول ما لفت انتباههما لبعضهما بعضاً هو زواجهما من أجنبيتين. مجيد من برازيلية ومحمد من قبرصية. وكان كلاهما يترجم لزوجته ما لا تفهمه من الكلام العامي اللبناني. وجذبت تفاصيل حياة مجيد زيدان بعد ذلك محمد دياب، وأكدت علاقتهما الصافية هذه الصداقة.

ولد مجيد في العام 1924 في ضيعة إنطلياس المتاخمة لبيروت، وكان الثالث في الولادة والأخير بين إخوته. علّمه أبوه حتى نهاية مرحلة المتوسط الإعدادية، ثم خرج إلى الحياة ليساعده في العمل في دكان لبيع الزجاج، بعدما أبدى موهبة مميزة في تعلّم اللغات الأجنبية أثناء دراسته.

وانتبه أبوه أثناء عمله في المحل، إلى مقدرته على كسب ودّ الزبائن وثقتهم رغم عمره الصغير. ووظف مجيد أخاه الأكبر في المحل بعد وفاة أبيه، واتجه إلى العمل في أحد فنادق مدينة جونيه، لأنه كان يشعر أن مكانه يجب أن يكون بين عدد كبير من الناس، يتعرف عليهم ويحدثهم، ويتعلم أكثر من لغة.

وذات يوم أقنعه تاجر أحجار كريمة برازيلي يملك فندقاً في مدينة "ساو لويس" المطلّة على المحيط الأطلنطي، بالسفر لأنه يملك موهبة أكبر من المكان الذي

يعمل فيه. وعندما سأله مجيد عما إذا كان هو شخصياً يكفل أن يوظفه في فندقه لو سافر إلى البرازيل، وعده الرجل بذلك.

سافر مجيد إلى البرازيل سنة 1951 وكله شباب وحيوية وحلم بالثروة، وعمل في الفندق الذي يملكه المليونير البرازيلي المعروف، ذو العلاقات المهمة والنفوذ في الدوائر العليا، كما علِم في ما بعد.

استطاع مجيد بعد أربع سنوات أن يتكلم اللغة البرتغالية بطلاقة، وأن يعرف الكثير من الناس والأمور. ومما عرفه أنه يستطيع أن يستأجر فندقاً بمبلغ سنوي من المال يُحدد حسب أهميته وموقعه ومساحته.

داعب هذا الطموح مجيد طويلا، لكنه لم يجد وسيلة لتحقيقه بما ادخره من أموال. ودفعه طموحه ذاك إلى مكاشفة المليونير الذي يعمل لديه بالأمر الذي يفكر فيه.

ـ هل تعلم انك ستملك الكثير من المال في المستقبل؟ قال المليونير لمجيد.

ـ وكيف علمت هذا الأمر؟

ـ لأنك تملك حب المغامرة، وهي موهبة ليست موجودة عند الموظفين.

ـ وهل ستساعدني يا سيد روبرتو؟

ـ إذا بقيت معي.

ـ لكن كيف؟

عرف مجيد أن المليونير الذي يعمل لديه يمتلك في شكل غير مباشر عدداً من الفنادق الصغيرة على شاطئ المحيط، وأن اثنين منها سينتهي عقد إيجارهما في آخر العام 1955 الذي كانا يتحدثان في صيفه، ويمكنه أن يؤجر أحدهما له.

ـ إذا تم هذا الأمر سأسمي أول ابن لي روبرتو.

ـ المهم أن تتزوج يا مجيد.

لم يتزوج مجيد ولم يكن الأمر على قائمة اهتماماته الكثيرة، وطموحاته المتعددة، وصور الذاكرة التي يريد نسيانها، ومنها صورة والده متوسط الحال، ورغبته في البقاء مثلما هو بدون تطور، والذي حثّ ابنيه على هذه الفضيلة. كانت أمنياته وتداعيات ذاكرته هاجسه وصوته الداخلي للتفكير والطموح المستمر.

طوّر مجيد الفندق الصغير الذي استأجره، وزاد عدد موظفيه وقفز بأرباحه بعد سنتين إلى ضعف ما كان يحقق. وعلى رغم انه صار منافساً مهماً لفنادق أخرى يملكها المليونير روبرتو، اعتبر الأخير أن الفائدة تصب في نهاية المطاف في حساباته الخاصة، وأن مجيد نفسه ورقة رابحة يحتفظ بها للمستقبل.

كما أظهرت الأيام مواهب أخرى عنده، غير تعلّم

اللغات والمغامرة وتوقع النجاح باستمرار وقراءة الناس من اللحظات الأولي، هي ملكة شمّ مصادر النقود والذهاب في اتجاهها.

بدأ مجيد في تجارة السيارات القديمة، بعد أن لاحظ إعجاب أحد رواد فندقه بسيارته الأمريكية القديمة فطلب شراءها. واتجه بعد هذه البيعة التي يقوم بها عشرات الألوف يومياً في كل أنحاء العالم، ولا تعني لهم أي شيء، إلى البحث عن أنواع معينة من السيارات، وشرائها كيفما كانت حالتها ، ثم تجديدها وبيعها. وسارت هذه الهواية مع إدارة الفندق بالتوازي.

كان يعتبر أن المليونير روبرتو مدرسته الأولى، ورغم تماثلهما في العمر تقريباً، إلاّ أنه كان يشعر في قرارة نفسه أن روبرتو أكبر منه بسنوات. وربما كانت الخبرة والأموال هما سبب ذلك الشعور. وكان يحبه لأنه لم يكتف بوراثة أراض وأموال وتجارة، لكنه عمل واستثمر كل ما ورثه كما طوّر أعماله نحو أمور جديدة.

وبمرور الأيام والاقتراب من المليونير، أصبح مجيد على قناعة داخلية لم يبح بها لأحد، هي أن العالم تحكمه فئة معينة من الناس، على صلة ببعضها بعضاً، رغم اختلاف جنسياتهم ولغاتهم. وكان يرهف السمع ويدقق

النظر ليفهم أكثر، كما كان يتمنى دخول هذه الدائرة أو الاقتراب من فلكها.

استمرت مجموعة اهتمامات مجيد كما هي ولم تتغير، كما لم تنقطع صلته بوطنه الأم، خصوصا أفراد أسرته. لكنه أحس فجأة أنه وحيد، يكاد أن يتخطى مرحلة الشباب والقوة، مهمل بدون أن يهتم أحد بأمره، وأن في الحياة أموراً أخرى غير جمع الأموال وتلبية الشهوات والطموح الذي لا ينتهي، عندما رأى فتاة تحضر الزهور إلى فندقه، وتبدأ في جمع قديمها من أماكنها المنتشرة في المدخل، وتغيرّها بالجديد الذي أحضرته.

لم يعرف على وجه الدقة سبب الانشراح الذي أصابه بعد ظهر ذلك اليوم من خريف العام 1962 لدرجة مبادرته الفورية بالسؤال عنها، على رغم أن ما كانت تفعله يُظهر شخصيتها.

ـ من هذه الفتاة يافالانتين؟ سأل موظف الاستقبال.

ـ ابنة صاحبة محل الزهور الذي نشتري منه.

ـ لكنني لم أرها من قبل.

ـ إنها جامعية، ويبدو أن أمها مريضة اليوم، أو لديها عمل آخر.

ـ هل تأتي إلى هنا كثيراً؟

ـ نادراً.

اقترب مجيد من الفتاة وحيّاها وهي تعمل، فتوقفت ونظرت إليه نظرة خالية من أي محتوى على الإطلاق، ثم ابتسمت عندما لاحظت ثيابه، وخمّنت من يكون، وردّ هو بابتسامة أكبر.

ـ ما اسمك؟ سألها من خلال ابتسامته.

ـ لوس.

ـ لوس؟ أظن أنه ليس اسمها برازيلياً.

ـ كلمة إسبانية تعني: نور. وتستخدم كاسم أيضاً.

ـ اسم لائق بك تماماً.

ـ شكراً.

ـ بلّغي تحياتي إلى الوالدة.

ـ أكيد.

كانت لوس لعبة خمرية اللون، عذبة الصوت متوسطة القامة رقيقة البشرة والملامح، تتابع تعليمها في كلية الآداب، في الصف الثالث بقسم اللغة الإسبانية، وهي تصغر مجيد بخمسة عشر عاماً، كما أنها كانت وحيدة لأمها.

سأل عنها مجيد وراقبها عن بعد، ثم قارن ما بين عمرها وعمره، وظروفها العائلية وحياته، وسأل نفسه ذات ليلة وهو يقف في شرفة الفندق، والبدر عمره يومان في سماء ساو لويس، والقلب يشعر بالوحدة، عن معنى وقيمة

ما يفعل ويربح، ويستفسر لماذا يفعل ذلك، وماذا يريد من لوس. وانتهى إلى وجوب الذهاب مباشرة إلى أمها.

فهمت الأم ماريسلاّ قصد مجيد من زيارته لها، وقدّرت سلوكه المباشر كرجل ليس من أهل البلد، أحب فتاة من السكان الذين يعمل بينهم، ويريدها زوجة تعينه في ظروفه كإنسان وحيد. لكنها استمهلته حتى تأخذ رأي ابنتها.

ـ لطيف وغني ويبدو إنه يتحمّل المسؤولية.

أجابت لوس أمها عندما سألتها عن رأيها فيه.

ـ وإذا طلبك للزواج في يوم من الأيام؟

ـ أوافق بشرط إكمال دراستي الجامعية، ومعرفته أكثر أثناء الخطوبة.

ـ وفارق العمر بينكما؟

ـ الأمر لا يعنيني كثيراً. أجابت لوس بعد تفكير.

تمت خطوبة مجيد بعد مشاهدته للبدر مرتين أخريين وهو يظهر في سماء ساو لويس، عدا تلك المرة التي كان يقف فيها مفكراً في لوس لأول مرة.

ولم يدر في هذين الشهرين، لماذا أصبح الوقوف في الشرفة ليلاً ومراقبة السماء ومناجاة القلب، على خلفية أصوات أمواج المحيط المتكسرة، على رمال الشاطئ القريب تعني له أشياء كثيرة؛ كما لم يعرف سبب بحثه عن

وقت يجلس فيه منفرداً، هو المحبّ الدائم للجلوس إلى الناس والتحدث معهم، واكتساب المعرفة وبعض المصطلحات اللغوية من بلادهم.

نفذ مجيد شروط لوس أثناء فترة الخطوبة، كما غمرها بمحبته الفائقة التي كانت تزيد يوماً بعد يوم، لهذه اللعبة الجميلة ذات العيون الخضراء، التي قلبت حياته الداخلية تماماً.

لقد جعلته يعرف معنى الدفء الأسري مرة أخرى، بعد أن مارس حياة الحيوان البري، الذي يتحرك وراء قوته من مكان إلى مكان. بدأ يعي مرة أخرى بعد أن كاد ينسى، معنى سؤال الإنسان عن الإنسان، وبدأت محبة خاصة لحماته ماريسيلّا ازدادت مع مرور الأيام، وأصبحت من معالم سلوكه وشعوره نحوها، بعد أن بدأ يأكل على مائدتها أثناء زيارته لهم.

كان يشعر بالامتنان، والرغبة في العيش معها ومع ابنتها، رغم أنه يمارس مهنة تعتمد على إلقاء الطعام ساعة بساعة في سلال المهملات، واستقبال الناس يومياً بالابتسامة نفسها، وتمني اللقاء بهم مرة أخرى عند وداعهم.

كان يأكل على مائدتهما وهو في غاية التأثر، من

حنان هذه السيدة وابنتها تجاهه وسؤالهما عنه، لو لم يسأل هو لمدة يومين أو ثلاثة أيام على أقصى تقدير.

لم يكن هذا الإحساس بسبب الطعام، لكنه كان بسبب أجواء المحبة المصاحبة له. وعاش مجيد طوال عمره بشعور الامتنان هذا، كما كان يشعر بأن ماريسيلّا ليست حماته بل أمه، رغم عدم فارق العمر الكبير بينهما.

بدت ظروف مجيد لمن حوله، أنها تتجه نحو الاستقرار، وحتى الحصول على الجنسية البرازيلية. وهذا أيضاً ما قاله لأخويه عندما زار لبنان في ربيع العام 1963، إثر وفاة والدته.

لكن في الربيع التالي تماماً، والعام الدراسي الذي كانت ستتخرج فيه خطيبته من الجامعة، ويتزوجان فيه بعد التخرج، حدثه المليونير روبرتو بأمر لم يتوقعه أبداً.

ـ ستشتري مجموعة مستثمرين مهمة فندقاً كبيراً في بيروت.

ـ وما علاقتي بالموضوع؟

ـ يعتبر لبنان وطنك مهما كان الأمر..

ـ صحيح، لكنني لا أفهمك تماماً يا سيد روبرتو.

ـ هذه المجموعة عندها طموحات أكبر، ولديها خطة لشراء أو بناء فندق ضخم كل خمس سنوات.

ـ وما هو دوري؟

ـ يحتاج أول فندق سيشترونه، إلى رئيس مجلس إدارة. المعاش والعمولة من الأرباح ستحددها أنت.

ـ لهذه الدرجة؟

ـ انتبه.. المجموعة عندها طموحات أكبر في لبنان، وأنت ستكون الرجل الأساسي لديها. عندي أخبار تقول إن هذا البلد ستكون فيه نقود كثيرة.

ـ لكنني..

ـ أعلم أنك أحببت ساو لويس، هذه نقطة غاية في الأهمية، إضافة إلى أنك ستتزوج.

ـ دعني أفكّر.

ـ فكّر أيضاً أنك يمكن أن تتزوج، وتأخذ لوس معك. وساو لويس لن تتحرك من هنا، زرها متى تشاء.

كاشف مجيد خطيبته لوس بالأمر، بعد مخاض عسير بينه وبين نفسه، وبما ينوي أن يفعله قريباً، وصارحها أيضاً بما لديه من أموال وعلاقات وما سيربحه، وأنه سيعود مرة أخرى، وبأسرع وقت، ليأخذها مع أمها إلى لبنان بعد أن يتزوجا في ساو لويس، لأن أمها يستحيل عليها أن تعيش وحدها، وهو يصعب عليه الحياة بدونهما.

ـ هل حدث أمر مهم بينك وبينه؟ سألت الأم ابنتها بعدما أخبرتها بما قاله مجيد لها.

ـ لا.

ـ على أية حال، هو رجل غريب، ويمكن أن يذهب كما جاء.

ـ لكنني أحسّ أنه صادق.

ـ لنر.. دع الأيام تثبت صدق إحساسك، ولا توهمين نفسك بما لا ترينه.

استمر مجيد في الاتصال بخطيبته من لبنان، وكان الداعم المعنوي الأكبر لها، بعد تعثرها في امتحانات السنة النهائية، بسبب الهزة العاطفية التي عانت منها بعد سفره، وميلها إلى تصديق شك أمها في "انه رجل غريب يمكن أن لا يعود".

عاد مجيد بعد سنة، وكانت لوس قد تخرجت في الجامعة، وتزوجا في صيف 1965 الممطر في البرازيل، وعادا إلى لبنان برفقة أمها ماريسلآ.

لم يتغيّر أمر مما قاله المليونير روبرتو لمجيد، بالنسبة لعمله في لبنان، وتغيرت أيامه من جيد لأفضل، ورُزق بمولود في كانون الثاني من العام 1967 أسماه روبرتو، كما وعد صديقه وملهمه، لكن الاسم خُفف في المناداة إلى روبير، ليتماشى مع الأسماء في لبنان.

أما طارق فقد ولد في تشرين الأول سنة 1969، واختار مجيد هذا الاسم لأنه فكّر كثيراً وهو صغير في القائد طارق بن زياد الذي أحرق سفنه بعد وصوله غازياً

إلى ساحل أسبانيا، وكان شديد الإعجاب بجرأته. إضافة لعامل ثان آخر هو سهولة نطقه بالنسبة لأمه وجدته.

أحس مجيد بعد العام 1970 بفتور حماس مجموعة المستثمرين التي يدير أعمالها، واقتصار نشاطهم على استثمار مطعم لمدة ثلاث سنوات في الوسط التجاري في بيروت، يقع بالقرب من الفندق.

ونصحه صديقه روبرتو في بدايات العام 1974، بعدم استثمار أمواله في أي شيء في لبنان، وتحويل الجزء الأكبر منها إلى البرازيل. تعجب مجيد من النصيحة، لكنها، على أية حال، كانت تتماشى مع الأجواء المريبة التي سادت بيروت في تلك الفترة.

فكّر مجيد بترك البلد نهائياً، والعودة إلى ساو لويس، وهو يستجم مع أسرته لمدة شهر في قبرص، بعد أن ترك ما سمُي آنذاك "بيروت الغربية" عملاً وإقامة، وأثناء الفترة التي أطلقوا عليها "حرب السنتين" في لبنان. لكنه أحس أن حمله ثقيل، وأنه هو نفسه فقد الكثير من القدرة على التنقل، إضافة إلى مسؤوليته عن أسرة أخيه الأكبر بعد وفاته.

ـ أنا موجود في ساو لويس، وأنت تعلم مدى ثقتي بك. قال له روبرتو في حديث هاتفي بينهما وهو يحثه على ترك لبنان.

ـ أعلم، أنا في قبرص للاستجمام فقط وسأعود.

ـ حتى الذين يعلمون ما لا يعرفه معظم المحللين السياسيين، يقولون إنَّ مستقبل هذه البلد غامض.

ـ كل شيء له نهاية، ولا أظن أن الأمور هنا ستستمر إلى ما لا نهاية.

ـ مجيد..أنا.. أنت تعلم ما أريد قوله.

ـ أعرف.. وقد تجدني عندك في أي لحظة.

هداه تفكيره أثناء فترة مكوثه في قبرص، إلى العودة لهوايته القديمة، تجارة السيارات المستعملة، مع فتح محل كبير للتصليح يكون بجوار معرض السيارات، بعد أن تأكد من أن العودة للوسط التجاري أصبحت حلماً صعب المنال. واشترى لمشروعه الجديد عقاراً كبيراً في محلة برج حمّود.

تعامل مجيد مع تجار سيارات مستعملة في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، وكانت سياراته المستوردة تأتي عن طريق مرفأ جونيه، بعدما أصبح مرفأ الدولة اللبنانية في بيروت شبه مغلق وغير آمن.

ودفعه طموحه إلى قراءة الاقتصاد العائلي والعشائري في لبنان، فوجد أنه لن يستطيع أن يحصل على أي وكالة سيارات لوجود من سبقه في مجال الماركات المعروفة، إضافة إلى لعبة القمار غير الآمنة، لوضع سيارات جديدة

تحت رحمة القذائف، وهذه مسألة لم يمارسها حتى أكبر الأسماء في عالم تجارة السيارات في لبنان أثناء فترة الأحداث.

وجد مجيد مكاناً في هذا المجال هو تجارة قطع الغيار، فأقام محلاً من أجلها على العقار الكبير الذي اشتراه.

تواصلت الثقة والصداقة ما بين مجيد وروبرتو، على رغم البعد وعدم اللقاء، وزار مجيد ساو لويس في العام 1985 وقابل روبرتو واستعادا الكثير من الذكريات، وعرف منه أنه في شبه مرحلة تقاعد بعدما تولى أبناؤه الكثير من أعماله.

ـ أصبحت مستشاراً فقط يا مجيد. تقدمنا في العمر.

ـ أنا لم أزل في منتصف المعمعة.

ـ الحق عليك.. لماذا لم تتزوج وأنت صغير.

ـ يأخذ كل إنسان نصيبه في الحياة، وأنا أشعر أنني بعيد جداً عن الموت.

ـ وابناك؟

ـ الكبير التحق بكلية الطب هذه السنة.

ـ روبرتو؟

ـ نعم. والصغير في الصف الثاني الثانوي.

ـ مجيد.. هل سمعت عن الاقتصاد الأسيوي الذي ينمو؟

ـ سمعت وقرأت.
ـ ضع هذه البلاد في بالك لمدة ربع قرن.
ـ إذا عشت هذه المدة.. هل لديك اتصالات؟
ـ ستعيشها وأكثر.. لديّ اتصالات وأصدقاء.
ـ أريد إحدى وكالات السيارات من هناك.
ـ في ظروف لبنان الحالية؟!
ـ بمجرد أن تسمح الظروف.

ضحك روبرتو وهو ينظر إلى صديقه، الذي أصبح في الواحد والستين من عمره، ويريد أن يبدأ من جديد.

ـ هل تستطيع ذلك يا مجيد؟
ـ أستطيع.

كان مجيد ملحم زيدان في شبابه رجلاً ليس قبيحاً أو جميلاً. ذا قامة متوسطة الطول وشعر غزير أسود اللون مصفف للخلف. صاحب عينين تنظران إلى أي إنسان أو شيء، وكأنهما تصوران ما تشاهدانه. مستمع ومتحدث بدرجة الامتياز نفسها، ويستمع كثيراً قبل التكلم. مدخن وذوّاقة لجميع أنواع الخمور، لكنه غير مدمن.

لم تغيّر السنوات فيه سوى لون شعره وحدة بصره، وامتناعه نهائياً عن التدخين واحتساء الخمور، بعد أن رزق بأول ابن له. كما أنه أصبح يغمض عينيه ليصغي السمع، بعد عمر الرابعة والستين، إذا كان الأمر الذي يستمع إليه

مهماً. كان يقول إنَّ هذه الطريقة تريحه، وتجعله أكثر تركيزاً. ولم تسبب هذه العادة الطريفة أية حساسية بالنسبة لمن يعرفه، وإن كانت مستغربة وتحتاج لشرح لمن يراه لأول مرة يفعل ذلك.

٣

أمر طبيعي أن ما بناه مجيد بعد العام 1990 قد شكّل هاجساً بالنسبة له. هاجس انهيار النجاح وهدر الأموال وانهيار اسم مؤسسة، في حال مرضه أو خرفه أو وفاته المفاجئة. وكان ينظر إلى عمله الذي ينمو، ويراقب من حوله، ولا يرى سوى ابنه طارق المؤهل الوحيد، من بعده، لإدارة ما تعب حقاً في إنشائه.

التحق ابنه الأكبر روبير بكلية الطب، بعد أن أظهر كفاءة عالية منذ نعومة أظفاره، في فهم الرياضيات وتبعها بعلوم الميكانيكا والأحياء والكيمياء، عندما أصبح في المرحلة الثانوية. وقد انتقل من سنة دراسية إلى أخرى بنجاح وتفوق في جامعته، وانتهى متخرجاً بدرجات ممتازة، وبدأ تخصصه في جراحة القلب.

رأى مجيد ابنه روبير رجل علم، لم يرث شيئاً لا منه ولا من أمه، ما عدا الشكل الخارجي. مجتهد منذ صغره،

يميل إلى العزلة والقراءة وعدم ممارسة الرياضة. وأظهر رغبة واضحة منذ بداية المرحلة الثانوية بدراسة الطب. واعتبر الأب ابنه هذا رأسمالاً لا يُمس، ولا تتغير وجهته.

كان يراه ويستمع إليه أحياناً، وكأنه يشاهد ويصغي إلى نفسه، للتشابه الكبير بينهما حتى في الصوت. ولم يبخل عليه بشيء ليراه في مكانه الذي كانا يحلمان به سويا. واستخدم صداقاته للوصول إلى التعرف بأساتذته في الجامعة، لكي تتاح لابنه رؤيتهم عن قرب.

ـ أنا لا أحتاج لأي توصية للنجاح. قال روبير لوالده بغيظ ذات يوم.

ـ أنت قليل الخبرة في الحياة بعد.

ـ اشرح لي.

ـ معرفة هؤلاء الأساتذة مهمة لما بعد الجامعة.

ـ لماذا؟

ـ الذكاء والنجاح العلمي قد.. وأقول قد.. لا يصنعان النجاح في الحياة.

ـ وماذا يحتاج النجاح فيها؟

ـ أنا لم أنته بعد.. أو حتى الوصول إلى أن تكون مدرساً في الجامعة.

ـ وماذا أحتاج؟

ـ دوائر من الصداقات: فوق وتحت.

ـ ماذا تعني بفوق وتحت. (وهو يبتسم).

ـ أصحاب القرار، والناس البسطاء الذين يخدمونك في أمور صغيرة.

أما طارق فكان الولد المدلل بين أفراد الأسرة، وذلك لخفة دمه التي بدأت تبدو عليه، منذ أن أصبح عمره سنة ونصف، وطالما جعل أباه يضحك من قلبه وهو لم يتكلم بعد. وكانت جدته تقول إنها لم تر أبداً مثل أفعاله لمن هم في مثل عمره. كما اشتهر بوسامته بين الأولاد سواء بين الأقارب أو بين أبناء الحي.

ورث طارق عن أمه لون بشرتها وعينيها، وعن جده لأمه قامة تصل إلى مائة وثمانين سنتيمتراً. ولقد سبب الغنج الزائد عن الحدّ المفترض له، حالة عصبية يثور فيها ويبكي، إذا رُفض طلب له عندما كان صغيراً. وتطور هذا السلوك إلى لحظات مزاجية سوداء بعدما كبر. لكنه سرعان ما كان يعود إلى طبيعته المُحبة للنكتة سماعاً وقولاً، والمرح والاستمتاع بالحياة.

وصل طارق إلى المرحلة الجامعية، في كلية تجارة الأعمال، ولم يرسب في أي عام دراسي في مراحل تعلمه. كان من التلامذة المتوسطي العلامات في الصفوف الدراسية، ومال إلى ممارسة رياضة كرة السلة منذ المرحلة الإعدادية المتوسطة، وكان يحب الرقص ويقول إنه يساعد

على الاحتفاظ باللياقة البدنية، وتوافق حركة اليدين والقدمين في رياضته. وكان هو نفسه يتحرك ويمشي كأنه يستمع إلى إيقاع داخلي.

استقر رأي مجيد بعد سنتين من دراسة طارق الجامعية، على أنه سيكون خليفته في العمل. لكنه لم يشأ وقف دراسة ابنه، حتى لا يشعر في قرارة نفسه أنه أقل شأناً من أخيه. وهكذا أخذ يرسله إلى أي مكان ممثلاً عنه، حتى إنه كان يصطحبه في بعض رحلاته الخاصة بالعمل، ليدخل الأجواء خطوة بخطوة من أماكن يحبها. وبدأ طارق عمله الفعلي في المؤسسة بعد التخرج مباشرة، وهو راض وعلى قناعة تامة بما يفعل، ويرى في الوقت نفسه النقطة المستقبلية التي سيصل إليها.

أما كارول أبو النصر فقد ولدت في بيت متوسط الحال، في إحدى ضيع المتن الشمالي في لبنان، ثم انتقلت أسرتها إلى بيروت بسبب ظروف عمل والدها.

جميلة منذ ولادتها، اهتمت بأدوات التجميل والعطور والمساحيق منذ طفولتها المبكرة، وطالما نهرتها أمها عن استخدام تلك الأشياء، خصوصاً في بيوت الجيران أو من يزورهم، أو استعمالها في عمل الماكياج لها، أو لمن هن في مثل عمرها، أو ارتداء الإكسسوارات المخصصة للفتيات البالغات. وكانت أمها تقول دائماً، إنها ترث كل

ما هو قديم، أو على وشك الانتهاء من هذه الأشياء من نساء الحي. كانوا يعطونها لكارول رغم كل ما تقوله الأم.

تميزت كارول عن أترابها في كل مراحل التعليم، بالجرأة في مناقشة الأساتذة، وإلقاء الشعر بصوت عال في صفها الدراسي، والبراعة في قواعد النحو والصرف، والثقة المفرطة بما تعرفه منها.

أجمع ذات مرة كل زميلات وزملاء صفها على أن (الواو) في بيت شعر في قصيدة الشاعر أحمد شوقي " بيني في الحب وبينك " :

الحُسن حلفتُ بيوسفه والسورة أنك مفرده

هي (واو) العطف، بينما قالت هي إنها (واو) القسم لأن أحمد شوقي حلف بجمال يوسف عليه السلام، وأقسم بالسورة القرآنية "سورة يوسف" أن حبيبته فيها شيء من هذا الحُسن.

كما اهتمت كارول بالكتابة في الدوريات التي تصدر عن المدرسة، وكانت تلقي كلمة التلامذة في حفل نهاية العام الدراسي. وعندما نصحتها المعلمة المسؤولة عن كورال الغناء بالمدرسة، بالانضمام إليه، أجابتها برغبتها في أن تكون مذيعة تلفزيونية.

توُفي والدها إثر أزمة قلبية، من التي تقصف أعمار الرجال الأصحاء، ما بين سن الخامسة والأربعين

والخمسين، وترك وراءه زوجته هدى المسؤولة عن قسم المحاسبة في إحدى المطابع في بيروت، وإيفون ابنته الكبرى وكارول التي كانت في أول سنة في كلية الأعلام.

ثابرت أمهما على تربيتهما، وعلى حثهما على مواجهة الحياة بمسؤولية وجدّية، وزرعت فيهما روح النظافة والطهارة، ورفضت من أجلهما عدة عروض للزواج.

ـ حقيقة لا أستسيغ فكرة الحياة مع رجل آخر تحت سقف واحد. كان ذلك ردها على أي عرض للزواج.

وقالت مرة لابنتيها:

ـ لا أعرف ما هو إحساس الفتاة التي تنتقل من شاب لآخر مثل كلبة في الشارع.

ورثت كارول عن أمها بشرة بلون الملبس، وعينين عسليتين فاتحتين وشَعْراً يشبه لونهما، بالإضافة إلى نهديها الكبيرين. وكانت أطول من طارق بسنتيمتر أو أكثر على الأرجح.

ورغم عمرها البالغ تسعة وعشرين عاماً، إلاّ أن ملامحها بشكل عام، كانت ملامح مراهقة مازالت بنعاس النوم في العاشرة صباحاً. مراهقة بأنف دقيق عال وجبهة صغيرة، ووجه بيضاوي الشكل فوقه شعر مزروع بشكل نصف دائري فوق العينين، لا وجود لأي تعرجات للداخل أو للخارج فيه.

مبتسمة العينين، تضحك بصوت خافت، وتدير وجهها لجهة اليسار بطريقة تلقائية مع شبه ابتسامة، إذا وجّه إليها أي إنسان المديح، كما أنها كانت تنفعل مع النكتة القائمة على المتناقضات.

كانت كارول تعرف كيف تتكلم بالفطرة، وقد ساعدتها ثقافتها وحبها للاطلاع، حتى قراءة قصاصة جريدة ملقية، على التجاوب في الحديث على أي مستوى.

تأثرت كثيراً في بداية حياتها العملية بنكتة قالها أحدهم:

"تعوّد شخص قبل أن ينام، على طلب المساعدة من شفيعه القديس جرّجس في أن يجعله يربح ورقة يانصيب. وواظب بدون كلل على طلبه الوحيد سنوات وسنوات، لكن بدون جدوى.

وظهر القديس الكبير ذات ليلة في المنام لمريده، وقال له:

ـ يا هذا.. هل تريدني أن أساعدك في ربح ورقة يانصيب؟

ـ أكيد.

ـ إذاً إشترِ ورقة."

بدأت كارول حياتها بعد التخرج صحافية تكتب تحقيقات "بالقطعة" في كبريات الصحف اليومية

والمجلات في بيروت، و عيناها على التلفزيون وهي تنتظر الفرصة. وسألها أحدهم، بينما كانت تجري تحقيقاً معه عن إحدى المحطات الفضائية العربية لمجلة نسائية:

ـ هل تريدين العمل في التلفزيون؟

ـ نعم.

ـ وعلى استعداد للسفر للخارج؟

ـ إلى أين؟

ـ روما.

ـ نعم.

ـ هل عندك أفكار برامج جديدة؟

ـ نعم.

قطع محدّثها الحوار وأجرى اتصالاً هاتفياً، قال لها بعده وهو يكتب على ورقة صغيرة، وهي غير مصدقة ما تسمعه وتراه:

ـ إذهبي إلى هذا العنوان بعد غد في العاشرة صباحاً، لمقابلة الأستاذ محمد الجاسم.

توقعت كارول ردّة فعل أمها على ما ستقوله لها عن ذلك العرض، لكنها تكلمت معها، كنبتة صغيرة مزروعة خلف حائط، تعرف كيف تجد طريقها بين الشقوق لتطل على الشمس، التي تطل على الجانب الآخر فقط.

ـ تقولين روما؟ سألتها أمها.

ـ نعم.

ـ إنسي الموضوع نهائياً. لا بنات عندي يسافرن إلى روما أو غيرها وحدهن.

ـ يقولون لي هنا: الجميلات كثيرات، والموهوبات بدون عمل، وظروف العمل التلفزيوني محدودة. جاءتني فرصة عمري ولن أرفضها.

ـ ومن أنت حتى تقررين الرفض أو القبول؟

ـ ابنتك.

ـ ويجب أن تسمعين كلامي لأنني أكثر خبرة منك في الحياة والناس.

ـ هل تثقين بنفسك وتربيتك لنا فعلاً؟

ـ ماذا تقصدين بسؤالك؟

ـ أقصد ما قلته، لا أكثر ولا أقل.

ـ نعم أثق بتربيتي لكما. ربيتكما (وعيناها تلمعان بالدموع) بدموع عينيّ.

ـ وهل نحن نتصرف وفق هذه التربية، سواء كنا بعيدتين أو قريبتين منك؟

ـ أنا واثقة من ذلك.

ـ ما الفرق بين وجودي في صيدا مثلاً أو روما؟

ـ كبير.. ما زلت في لبنان وأنت في صيدا.

ـ هل هذا الفرق بالنسبة لك يا أمي؟

ـ أنا والناس.. أهل المرحوم والدك على الأقل.

ـ دعيهم يقطعون المعونة التي يرسلونها، ويسحبون السفراء أيضاً.

ـ لا معونة أو سفراء. ولا أراهم حتى سوى في المناسبات.

ـ وصلنا إلى أهم نقطة..

ـ وما هي؟

ـ هل قلبك وإحساسك يقولان لك إنني سأنجح في المقابلة بعد غد؟

ـ أكيد.

ـ وهل سأسافر إلى روما؟

سكتت الأم لحظات ومسحت دموع عينيها، وقالت بصوت متقطع:

ـ على فكرة أنا لم أتبرم من مصروفكما ولن أتضايق من ذلك أبداً..

ـ .....

ـ ولا أريد شيئاً من معاشك.

صرخت كارول بصوت عال ورفعت يديها وقفزت ووقفت على الكرسي الذي كانت تجلس عليه، حتى كادت أن تلمس السقف بأصابعها. ونظرت أمها إليها وهي تبتسم والدموع لم تزل في عينيها:

ـ أولاد.. صحيح أولاد صغار.

كانت المرة الأولى التي سافرت كارول فيها في حياتها هي رحلتها إلى روما للعمل. ورغم سعادتها القصوى بالوصول إلى هدفها، لم تدر سبب وجومها والطائرة تنطلق على مدرج مطار بيروت.

ربما أحست أنها قد فعلت شيئاً كبيراً، أو بدأت تشعر بالغربة القادمة، بعيداً عن أسرتها الصغيرة، أو أنها شعرت باليتم لعدة لحظات، وهي تقدم على خطوة ما زالت مجهولة، لأنها لم تتفق على طبيعة العمل تحديداً. كان الاتفاق أن تكون مذيعة.

واجهت كارول الحياة وحيدة لأول مرة، كما تعلمت أن تأخذ قرارها بدون مراجعة أحد. وانتقلت من الفندق الذي أقامت فيه لمدة شهر بعد وصولها، إلى شقة صغيرة استأجرتها، وأغلقت عليها بابها، وهي تشعر لأول مرة بإحساس الإنسان المنفرد في بلد لا يعرفه، أو يعرف أحداً فيها.

ثم بدأ عملها يستغرق كل وقتها، لأنها انتقلت بعد شهرين من مجرد " مذيعة ربط " تحت الاختبار، تسجّل تقديمات البرامج والأفلام، إلى مقدمة برامج تقدم برنامجها الخاص أسبوعياً، و"على الهواء" مباشرة.

لم تصدّق نفسها في البداية عندما ظهرت على الشاشة

في البرنامج لأول مرة، ورغم بعض الأخطاء التي ارتكبتها، كان واضحاً أنها تتمتع بشخصية مستقلة لا تقلّد أي مقدم برامج فيها، وأن الكاميرا تحبها وتظهرها أجمل بكثير من جمالها الحقيقي.

اتصلت كارول بأمها في ذلك المساء، وأخبرتها بالموعد الأسبوعي الذي ستظهر فيه، وموعد إعادة البرنامج.

ـ ما يعني أنني سأراك مرتين في الأسبوع وأطمئن عليك. قالت الأم.

ـ وأنا سأشعر وكأنني أتحدث إليك.

سارت كارول بعد هذا الاتصال في الشوارع المحيطة بمنزلها، وهي تحاول التخفيف عن نفسها من الانفعالات المتواصلة، ولو إيجابياً، خلال الشهرين الماضيين في الحياة الجديدة التي تعتمد فيها على نفسها تماماً في المنزل وخارجه. وشعرت أنها بحاجة ماسّة لتعلّم اللغة الإيطالية، لأن الشعب الإيطالي في معظمه لا يعرف غير لغته، وبدت هي كأنها خرساء في المحلات التي تشتري منها، إضافة إلى أطقم العمال والتقنيين الإيطاليين الذين تتعامل معهم وراء الكاميرا.

وأنارت شمعة في عاصمة الكنائس في العالم، قبل أن تعود إلى منزلها، وتذكرت أباها وتمنت له الرحمة.

كان انطباع كارول ممتازاً عن روما، منذ أول لحظة غادرت فيها المطار، لكنها استغرقت أكثر من بضعة شهور لتحبها، وتهضم كل ما تراه وتخزنه في ذاكرتها وقلبها. ثم تحول الحب إلى غرام أبدي لا ينتهي. وقد بدأت تعلّم اللغة الإيطالية من بضع كلمات تلتقطها من هنا وهناك، وتيقنت أنه لا مهرب من الذهاب إلى معهد لتتعلمها وتقول جملة صحيحة، وتفهم كل ما يقال تماماً وليس تقريبياً.

ـ لا أعرف كيف أُضيفت "ال" التعريف إلى اسم عائلتها. اسمها أبو نصر فقط، وهي ابنتي.

هكذا كانت تجيب أمها، عندما يقول لها الجيران أو البائعون أو الحضور في الكنيسة صباح يوم الأحد، إنهم رأوا مذيعة تشبه ابنتها على شاشة إحدى الفضائيات العربية، ويستفسرون عما إذا كانت هي، لأن اسم عائلتها "أبو النصر".

وعلى رغم الاتصالات الهاتفية مساء كل يوم أحد ما بين كارول، التي كانت تبادر بالاتصال، وأمها وأختها، لم تتذكر إحداهن مرة أن تسألها عن سبب هذا التغيير، من بين الأسئلة والثرثرة لمدة عشرين دقيقة وأكثر، وكذلك لم تشر كارول إلى الأمر.

عانت الأم فراغ عدم وجود ابنتها في المنزل، وكانت أحياناً تقول في ما بينها وبين نفسها:

ـ سأعرض هذا الأمر على كارول.

أو:

ـ سأنتظرها حتى تحضر على الغداء.

وكانت تتراجع عما فكرت فيه، أو قالته، عندما تتذكر أن ابنتها في روما. كما أخفت ما تشعر به عن ابنتيها، حتى لا تتأثران، وينعكس ذلك على حياتهما العملية.

ثم بدأ نوع من الإعجاب بابنتها يتشكل في قلبها. إعجاب وهي تراها على الشاشة الصغيرة بكامل تألقها ولباقتها، وتتذكر إصرارها على طموحها، والكم الضخم من الكتب وشرائط الأغاني وقصاصات الصحف والمجلات والدوريات الموجودة في غرفتها.

ـ صحيح لا شيء يضيع في هذه الدنيا. كانت الأم تهمس لنفسها.

وكان الإعجاب يتزايد مع استمرار حديث الناس عنها، بعدما أصبح لها معجبون يتحيزون لابنة حيّهم، وينتظرون موعدها الأسبوعي، ويحثون أقاربهم وأصدقاءهم في أحياء أخرى على متابعتها. كانت الأم تتحكم بلسانها في آخر لحظة وهي تكاد تقول إنها ابنتها، عندما تدخل إلى أحد المحلات وتراها على شاشة التلفزيون الموجودة فيه.

وذات ليلة، انعقد لسان أمها من الذهول، وهي ترى

باب شقتها يُفتح قبل الفجر، وقفزت من سريرها، واتجهت إلى غرفة الجلوس وفيها مدخل البيت، والنور غير مضاء، فوجدت كارول تُدخل شنطة سفر كبيرة، وتتبعها بعدة أكياس صغيرة، ونادت عليها بصوت مرتفع وأسرعت نحوها تقبلها وهي تقول

ـ لماذا لم تخبريني بعودتك؟ لقد كنت أتابعك اليوم عصراً..

ـ لأن الطائرة تصل في الرابعة بعد منتصف الليل ، وخفت أن أزعجك بالحضور إلى المطار.

ـ وكيف أتيت إلى المنزل؟

ـ يوجد اختراع حديث ومفيد اسمه سيارة أجرة.

وابتعدت أمها عنها ثلاث خطوات، ونظرت إليها بتمعن ومودة وهي تقول:

ـ دعيني أتأمل ابنتي المشهورة.

ـ لهذه الدرجة؟

وجاء صوت أختها إيفون التي استيقظت من النوم، واندفعت لتحية كارول:

ـ وأكثر.. حمداً لله على السلامة بعد ثمانية أشهر من غياب.

ـ على فكرة.. بماذا شعرت وأنت تظهرين في البرنامج لأول مرة؟ سألتها أمها.

ـ كأنني كيس خضار مجلّد في الأستوديو، ومرت الساعة كدهر. كنت خائفة. الشاشة حساسة جداً.

ـ وكم عدد أيام زيارتك؟

ـ ستة أيام.

وُلدت كارول بموهبة التحدث مع الناس، والارتجال وعدم الارتباك من مواجهة الجمهور. وأضافت إليها تجربتها التلفزيونية عادة الإنصات، خصوصاً أنها كانت تتحدث مع المتصلين أو ضيوف برنامجها بالتلفون، وكان الصوت أحياناً غير واضح.

تعلمت كارول أن تصغي إلى محدثها حتى آخر كلمة يقولها، ثم تبدأ في الرد بعد ثلاث ثوان، وطالما قالت في قلبها: واحد.. اثنان.. ثلاثة.. قبل أن تردّ، حتى يصبح الأمر عندها عادة لا تتغير. وانتقل هذا الأسلوب معها إلى خارج الأستوديو، وكان بعضهم يصفها باللؤم بسببه، لأن ملامح وجهها في الثواني الثلاث، كانت تبدو وكأنها تفكر في ردّ على ما قيل، أو تثمّن ما سمعته. وضحكت بطريقتها الخافتة بعدما قيل لها هذا الوصف.

كانت كارول قد أمضت حوالى سنتين في عملها التلفزيوني، عندما قابلت طارق لأول مرة، وفي الوقت نفسه الذي قدمت فيه فكرة برنامج جديد، يعتمد على قراءة أهم ما حدث في الأسبوع، ومناقشته مع الناس

وأهل التخصص. كانت الفكرة بعيدة عن السياسة، وتعتمد على المادة الفيلمية للحدث.

أرادت كارول قفزة جديدة، تناسب خبرتها المتنامية بعد كل تجربة تظهر فيها "على الهواء"، وخيوط الصداقات التي صنعتها في قارات أوروبا وأسيا وأفريقيا. وأتاحت الإدارة لها تحقيق هذا البرنامج، بعد الموافقة عليه وتخصيص ميزانية له.

وقد عرضت في إحدى الفقرات الأولى لبرنامجها الجديد، المشاهد العفوية التي صورت محمد دياب، وهو يعاني أزمته القلبية في الحفل، وما فعله طارق معه، وتعليق محمد دياب نفسه على ما حدث، رغم أنها كانت تخشى لوم الإدارة على عرض هذا الفيلم، وكذلك عدم تجاوب الناس معه، لأن الأمر شخصي بحت، وليس حدثاً عربياً أو كونياً، ورغم ذلك أقنعت المخرج بعرضه.

وقد رددت كارول في ما بينها وبين نفسها عدة مرات، وهي في الأستوديو "على الهواء" والفيلم يُعرض على الشاشة:

ـ ومن هو محمد دياب حتى أخصص له فقرة؟ وكأنها كانت تلوم نفسها قبل أن يلومها الناس.

لكنها فوجئت بكم من الاتصالات الهاتفية، التي قدّم أصحابها مداخلات عما شاهدوه، إضافة إلى عدد

الفاكسات التي توالى وصولها حتى آخر ثانية في البرنامج، ما جعلها تدرك في لحظة وهي تواجه الناس، أن الموت هو المقصود وليس الشخص، وهو أمر كوني، يحب أن يعرف الناس عنه ممن اختبروه عن قرب.

لذلك أنهت برنامجها ارتجالاً بختام غير الذي أعدّته، ووعدت مشاهديها بصوت قد بُح من الانفعال، أنها ستخصص حلقة كاملة لموضوع "الظهور الثاني للإنسان"، تستضيف فيه على الهواء هاتفياً من بيروت الشخصين الأساسيين في لحظات محمد دياب الحرجة، وعالم دين، وطبيب أمراض قلب، ورئيس قسم الفلسفة في إحدى الجامعات العربية.

لم تدر كارول سبب دموعها التي انسابت على خديها، بعد أن ودّعت المشاهدين، وأنهت برنامجها. كانت المرة الأولى التي تبكي فيها داخل الأستوديو، وترتجف من الانفعال.

وجاء مخرج البرنامج من غرفة المراقبة، ووقف أمامها وانتظر حتى هدأت قليلاً، وساعدها على القيام من على الكرسي الذي جلست عليه، بمجرد ظهور عنوان نهاية البرنامج مع موسيقاه على شاشة التلفزيون الداخلية في الأستوديو.

ـ كنت أكثر من رائعة اليوم.

ـ .....

ـ لقد انفعلت معك كمشاهد لمدة لحظات، ونسيت وظيفتي، إلى أن لاحظت أن الكادر لا يتغير لفترة.

ـ شكراً يا سمير.

ـ كنت خائفاً من هذه الفقرة أكثر منك، لكن انظري ما حدث.

ـ المهم أن يؤدي الإنسان عمله من كل قلبه، وليحدث ما يحدث.

ـ ما عدا أن يفقد وظيفته.

اقتربت كارول من أذن المخرج وقالت له:

ـ إذا كان الرأي العام معنا، فمن علينا؟

وبالصوت الهامس نفسه ردّ عليها سمير:

ـ مسرور السيّاف..

ـ وماذا سيفعل الرأي العام؟

ـ صدّقيني: لا يملك سوى البكاء، و "الله يرحمه".

وسألته كارول بتعابير وجهها عمّا إذا كان ما يقوله صحيحاً، وردّ عليها بإيماءة من رأسه أن ما قاله صحيح، ووضع إبهامه على شفتيه.

اندهش طارق وهو يسمع كارول على الهاتف، وهي تشرح له ما حدث، وما تنوي أن تفعله، وتخبره بأنه سيكون ضيفاً مع محمد دياب، وستتكلم معهما على

الهاتف، وطلبت منه أن يكونا في الموعد المحدد بجوار هاتف أحدهما، واختار هو رقم تلفون منزل محمد دياب.

ـ على فكرة، لقد شاهد عم محمد الحلقة وسجلها، وسيفرح جداً بما قلتيه.

ـ جيد.

ـ لكن كيف عرفتِ رقم هاتف شركتنا؟

ـ من مكتبنا في بيروت.

ـ ومتى ستزورين لبنان؟

ـ أتمنى ذلك بعد شهر.

ـ أراك بخير.

ـ وأنا أيضاً.

أدارت كارول حلقة "الظهور الثاني للإنسان" باقتدار وحب ومزاج رائق، وساعدتها حرارة ضيوفها والمشاهدين المتصلين أو المشاركين بالفاكس.

قال محمد دياب إنه أصبح لا يستسيغ كلمة "موت" بعد التجربة التي مرّ بها. وفسّر ذلك بأن الموت يعني لغويا العدم. ولو كان ذلك صحيحاً، ما هو تفسير حركته من المكان الذي كان جسده يرقد فيه، إلى الشرفة غير الموجودة أساساً في الفندق؟

كان من المفترض أن "يموت"، أو يفقد كل شيء حتى شخصيته، وإحساسه بكلمة "أنا"، عندما توقف قلبه.

كما كرر أمام المشاهدين ما قاله لكارول، بعد اللحظات العصيبة وأثناء انتظارهم للطبيب في تلك الليلة.

وشرح طارق بإيجاز شديد ما فعله لينقذ حياة صديق أسرتهم لو استطاع. وقال إنه استخدم هذه الطريقة بعدما تذكّر في لحظة، ما سمعه من أخيه الطبيب، عن محاولة إنقاذ مريض الأزمة القلبية في حال تعذر وجود طبيب.

اختلف عالم الدين مع محمد دياب على عدم استساغته لكلمة "موت" لورودها في القرآن الكريم. وقال إن المقصود منها هو موت الجسد وليس الروح. ووقف محايداً ولم يعلق على التجربة التي مرّ بها محمد دياب، لكنه قال إن الحياة بعد الموت أمر مؤكد إيمانياً، وهو من أركان الإسلام الخمسة، وألمح إلى أن العلم يقف على مرمى حجر من اكتشاف تلك الحقيقة في حقله وضمن اختصاصه.

فسّر أستاذ أمراض القلب ما فعله طارق بأنه صحيح، وفيه شيء من الإلهام، فما أدراه أنها أزمة قلبية وليس سكتة دماغية مثلاً. وما فعله يشبه إلى حد ما في هدفه، الصدمة الكهربائية التي تُعطى للقلب في محاولة أخيرة لجعله ينبض بعد توقف، على رغم بدائية سلاّكة البالوعات.

وفرّق الأستاذ الدكتور ما بين توقف القلب والدماغ.

وقال إن العلم يعتبر أن توقف الأخير هو الموت، وإنه لا يجوز لأي طبيب كتابة شهادة وفاة في حالات الالتباس التي تحدث أحياناً، إلاّ بعد عدم ظهور أي إشارة صادرة عن المخ على الأجهزة، وتجنّب التعليق على ما حدث للمريض، لبعده عن اختصاصه.

كان الضيف الوحيد الذي تجاوب مع كل تجربة الثواني الحرجة، هو أستاذ ورئيس قسم الفلسفة في إحدى الجامعات العربية. وقد فسرها بأنه إذا كان الموت نفقاً من حياتنا إلى حياة أخرى، مثل النفق الذي أتينا منه من الرحم إلى الدنيا، فقد وصل محمد دياب إلى آخر مليمتر في هذا النفق. وكان خاضعاً طوال هذه الثواني لحواسه البشرية، لأنه سمع طارق يناديه، وأحس أنه فقد حاسة التذوق أثناء التجربة.

لم يمت محمد دياب لأن المخ لم يتوقف عن العمل، والدماغ لا تجدي معه الصدمات الكهربية لتجعله ينبض مرة أخرى.

ولو مات محمد دياب كان من المفترض أن يُخبر بما رأى، لكنه قال بمنتهى الأمانة العلمية إنه لم ير شيئاً من الشرفة. وكل ما قيل لا يمنع فرادة وأهمية التجربة المذهلة التي خاضها، وهي تبرهن إلى حد ما أن هناك شيئاً يبدأ، بعد نهاية ظهورنا الأول في هذه الحياة.

٤

على رغم جمال كارول المميز، لم يتقدم أحد لطلب يدها من أمها بشكل رسمي. اقتصر الرجلان اللذان حاولا بناء علاقة عاطفية معها، على طلب مواعيد منها، لبتّها في البداية، ثم امتنعت عن الاستمرار في الرد على الهاتف، أو التجاوب مع من ينتظرها في مكان عملها أو أي مكان آخر، بعد أن عرفت النوايا الحقيقية منهما تجاهها.

وعندما بدأت العمل في روما، كان هدفها طموحها والصمود في سباق التنافس المحموم، بين زميلاتها في المؤسسة، وبين الزميلات والزملاء الذين يقدمون قماشة برنامجها نفسه، في فضائيات أو أرضيات أخرى.

تعلمت كارول بالممارسة والمتابعة والتدقيق في كلام الناس، أن الزمن قد تغيّر. لم يعد ممكناً لأي أسرة أو مشاهد الإخلاص لقناة تلفزيونية واحدة، أو لمحطة راديو مهما كان اسمها كبيراً.

أصبح المشاهدون والمستمعون شرهين، لمعرفة الأخبار في كل أنحاء العالم، والبحث عن التسلية والجديد. كما أصابهم الملل من تكرار ما يسمعون ويشاهدون، خلال ساعات النهار وقسم من الليل. لذلك اتجهوا إلى تغيير قنوات التلفزيون بالريموت كونترل الموجود بين أيديهم، والوقوف عند ما يشدّهم، أو متابعة البرنامج الجيد الذي تُثار من حوله الأحاديث، ويكتسب شعبية بينهم.

حاولت كارول بكل إخلاص أن يكون برنامجها محبباً لدى المشاهدين، وكانت العبارة الوحيدة التي تسعدها وتصدقها، من بين عشرات المجاملات التي تسمعها أو تصلها بالفاكس هي:

ـ نحن ننتظرك بعد ظهر كل سبت.

كانت تعلم أن هذا المشاهد لن يمسك الريموت كونترول أثناء برنامجها. وطبّقت حرفياً ما سمعته من مخرج تلفزيوني كبير في روما، أن يكون ما تقدمه هو محور البرنامج وليس هي.

ـ سيملّ المشاهدون منك مهما كان جمالك، ولن يملّوا من جديد كل حلقة. قال لها.

كانت أم كارول تنظر إلى أختها إيفون المخطوبة،

لشاب يعمل في مختبر تحاليل طبية، بقلب مرتاح مطمئن. بينما كان عقلها قلقاً على كارول، التي قالت لها ذات يوم، عن غير قصد، وندمت على ما قالته:

ـ كنت أعتقد أن حظك سيكون أسعد من أختك.

ـ لماذا؟

ـ بالنسبة إلى جمالك.

ـ أي حظ تقصدين؟

ـ حظك في الزواج.

ـ وهل تعتقدين أنني أحسّ بالغيرة من إيفون؟

ـ لا أقصد ذلك.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أن تتزوجين قبلها.

ـ لأنني الأكبر والأجمل؟

ـ أو تكونين مخطوبة على الأقل.

ـ حظ الفتاة اليوم لم يعد في الزواج فقط، قسّمته الظروف الحالية للعمل والمنافسة والربح، والصفقات أحياناً.

ـ أخاف أن تتزوجين عملك في يوم ما.

ـ هو مخلص لي ولن يخونني، وأنا أيضاً.

قدّرت كارول كثيراً الذين يعملون، وكانت تتابع منافسيها في وقت فراغها، من خلال تعبهم وما يبذلون،

وليس من خلال شهرتهم، لأنها بعدما أصبحت داخل اللعبة، أدركت كيف تُصنع الشهرة أحياناً.

وعندما كانت في الحفل الذي رأت فيه طارق لأول مرة، أثارت انتباهها الأحاديث الجانبية التي سمعتها عنه، كما لفت نظرها الحذاء التقليدي الأسود الذي ينتعله، بينما يتجه معظم الرجال إلى انتعال الحذاء المريح. شعرت أنه رجل عمل ومناسبات.

كما توقفت عند عودته إلى القاعة التي أقيم فيها العشاء، عندما حان موعد ذهابه المفاجئ مع محمد دياب، ووقوفه وبحثه بعينيه عن شخص ما، وذهابه المباشر بعد حديثها معه عند باب القاعة.

وشدّ انتباهها فعلاً ـ بالنسبة لمجال عملها ـ قوله أربع جمل سريعة مختصرة، أثناء دوره في الحديث على الهواء، تشرح تماماً ما فعله.

فوجئت كارول بمكالمتين مسجلتين في ذاكرة تلفونها في روما أثناء غيابها عن المنزل، يشكرها طارق في أولهما على اشتراكه في الدقائق الممتعة في برنامجها، ويخبرها أنه تابعها لأول مرة من منزل محمد دياب، وأنها مقنعة ورقيقة للغاية على الشاشة، ويطلب منها ألاّ تندهش من معرفته لرقم هاتفها الخاص في روما، لأنه اتصل بفرع

مؤسستهم في بيروت، وطلب منهم رقمها لأمر عائلي خاص وضروري.

وحيّاها في المكالمة الثانية وأخبرها أنه ينتظرها متى تأتي إلى بيروت، لاستبدال سيارتها المستعملة بأخرى جديدة.

ذهبت كارول إلى مقر وكالة السيارات، حيث يعمل طارق في أول زيارة لها لبيروت، بعد حوالى شهرين ونصف من إذاعة حلقة "الظهور الثاني للإنسان".

ـ في الطابق الأول. لكن يجب أن تتركين سيارتك هنا.

كان الرد عليها عندما سألت عنه، في القسم الذي يبيعون فيه قطع غيار السيارات في الطابق الأرضي.

صعدت كارول إلى الطابق الأول، وأخذت تبحث عنه بعينيها، إلى أن وجدته منحنياً فوق محرك سيارة، وفوقه لمبة مدلاة ويعمل بهدوء. اقتربت منه وانتبه هو إلى الشخص الذي يتحرك باتجاهه، وأدرك أنها هي من النظرة الثانية، نظراً لتركيز ضوء اللمبة التي فوقه، وقدومها من جهة معتمة نسبياً.

نزع طارق الكفيّن اللذين يرتديهما أثناء العمل، وقلبه يخفق بشدّة، وأمسك بيده اليمنى محرمة ورقية واتجه إليها ليصافحها. أما هي فقد أخذت المحرمة الورقية من يده

أولاً وصافحته بعدها.

ـ حمداً لله على السلامة. هذا إجراء للنظافة فقط.

ـ ما هي أخبارك، وكيف حالك؟

ـ أنا بخير. هل تريدين أن أقدم لك شيئاً من الضيافة؟

ـ المكان مكان عمل.

ـ دعيني أرى السيارة..

ـ إنها في موقف السيارات.

نادى طارق على أحد العمال ليأتي بالسيارة من مكانها، وطلب من كارول أن تعطيه مفتاحها، واستأذنها لعدة ثوان، ثم عاد وبيده زجاجة مياه غازية صغيرة.

ـ حتى لو كان المكان كما تقولين.

ـ شكراً يا طارق.

وجّه طارق عينيه إلى السيارة بمجرد أن صعد العامل إليها، وتابعها وهي تقترب، ثم دار حولها بعد أن أوقفها السائق وترك محركها يعمل.

ولم تدرِ كارول لماذا أحست بالخجل وهو ينظر إلى سيارتها. شعرت كأنه يتأمل امرأة عارية بكل تجرد وبدون أي شهوة، وقال لها بعد أن أرهف السمع إلى المحرك، وجلس داخلها وأغلق نوافذها وأخذ نفساً عميقاً.

ـ حالة السيارة ممتازة، لماذا تريدين استبدالها؟

ـ أنت تعلم أن الناس تركض وراء الجديد..

ـ صحيح وهو له قيمته ورونقه في عيونهم.
ـ وعيناي أنا؟
ـ أكيد. على فكرة، كم يوماً ستبقين في بيروت؟
ـ خمسة أيام.
ـ فقط؟ إذاً أنت بحاجة لهذه السيارة حتى تنتهي معاملات تسجيل السيارة الجديدة.
ـ نعم.
ـ سأتدبر الأمر لتأخذين السيارة الجديدة الآن.

ذهبت كارول إلى قسم المحاسبة لتوقّع على معاملات أوراق بيع وشراء السيارتين، بعد حديث موجز من طارق مع المسؤولين المعنيين. وعادت بعد حوالى ساعة إلى ورشة الصيانة، لتلقي نظرة أخيرة على سيارتها الجديدة قبل أن تنطلق بها، ولتشكره.

ـ هل أنت مقتنعة وراضية بسعر سيارتك القديمة؟
ـ نعم، وأنا أشكرك فعلاً. لم أتوقع هذه السرعة في الخدمة.
ـ السيارة جاهزة تماماً، وأنا موجود إذا حدث أي شيء.

ومدت كارول يدها لتربت على كتفه، وانسحبت خطوة إلى الخلف لتعود إلى سيارتها الواقفة بجوارهما.

ـ كارول.. هل يمكن أن أراك بعيداً عن العمل؟

ـ لماذا؟

ـ لو أستطيع الكلام هنا لفعلت.

ـ فهمت قصدك. ممكن.

ذهبت كارول إلى موعدها معه، وهي تقدّر أنها ستلتقي بإنسان من الممكن أن يكون صديقها المخلص، في صقيع مشوار طموحها. وقدرت هذه الصداقة بالنسبة إلى اللمحات التي رأتها من طريقة تعامله معها، ولم تشأ لعقلها الذهاب أكثر من ذلك.

أما هو فقد تعمّد أن يذهب إلى هذا اللقاء، وكأنه صفحة جديدة لم يُكتب أي شيء نسائي عليها، ليقينه أنها تختلف عمن سبق وعرفهن، لدرجة تردد فكرة الإنسان الكامل على ذهنه كلما تذكرها.

وصل طارق إلى أحد المطاعم، التي افتتحت في مركز تجاري حديث في منطقة "سمرلاند"، قبل موعد العشاء المُتفق عليه بربع ساعة. وأتت كارول بفستان ليلكي على درجة رفيعة من الأناقة ورقة اللون. وأبدى إعجابه بفستانها ولونه وهما يتصافحان.

وبمجرد أن جلست بدأ الناس من حولهما بتحيتها، وأتى شخص بدا انه مدير المطعم ليحييها، ويؤكد لها أنهم يعرضون برنامجها أسبوعياً، على كل أجهزة التلفزيون الموجودة لديهم، والناس يحبون ما تقدمه.

ـ هل أنت منزعج؟ سألته هي.

ـ بالعكس، أتمنى أن أكون مشهوراً.

ـ إحساس جميل فعلاً أن يحييك من لا تعرفه.

تعمّد طارق التحدث بصوت خافت للغاية أثناء تناولهما العشاء، حتى لا يسبب لها أي إحراج.

ـ كارول.. أعلم أن وقتك ضيّق، وأنك شبه زائرة لبيروت كل فترة.

ـ وقت صغير ومشغول كله.

ـ بماذا؟

ـ زيارات.. أمور عائلية.. تدريبات معينة على الإلقاء.. التعرف على أكبر قدر ممكن من أهل الأدب والفن.

ـ فقط؟

ـ فقط.

ـ تكوّن لديّ إحساس معين، في المرات القليلة التي رأيتك فيها، أتمنى أن تساعديني على اكتشافه.

ـ أنا لست أمريغو يسبوتشي. قالت وهي تبتسم.

ـ ومن قال لك إنني القارة الأمريكية؟ وهو يضحك.

ـ الإحساس نفسه الذي كنت تشعر به مع نساء أخريات؟

ـ مختلف.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ لذلك طلبت المساعدة.

كان طارق بالنسبة لكارول صورة مختلفة تماماً، عن صورة فتاها التي في مخيلتها، لكنها رغم ذلك تحركت بإحساسها نحوه، وارتاحت للصورة الواقعية الموجودة أمامها.

ذهبت قبل العشاء وهي تضعه في مرتبة صديق مخلص ليس إلاّ، وكانت تفكر في موعدهما التالي في مكان مختلف، قبل أن تستسلم إلى النوم ليلاً بعد العشاء معه.

وغادرت بيروت بعد أيام إجازتها الخمسة، وهي في شعور مختلف تماماً عن الذي أتت به، وإحساس يؤكد لها أنها وقعت في قصة حب. وكان هو سائق سيارة الأجرة، التي زعمت لأمها أنها ستأخذها إلى المطار عند منتصف الليل.

حرّكت الرغبة دائماً طارق تجاه المرأة، ولم تُسجل حتى سنوات مراهقته الأولى حكاية حب ولو خيالية في قلبه. لكنه اكتشف مع كارول إحساسين آخرين بالإضافة إلى الرغبة، هما شهوة التملّك والحاجة إلى رؤية الطرف الآخر دائماً. كما اختبر إحساساً، اعتبره لطيفاً جداً، هو أنها كانت أكبر منه بسنتين.

ولجأ كعادته، عندما تضطرب أمور مشاعره، ولا يستطيع وضع تصوّر لشيء يفكر فيه، إلى جدته ماريسلّا لتقرأ "أوراق التاروت" له.

ـ هذه أول مرة تكون أوراقك فيها بهذا الشكل.

ـ وماذا تقول؟

ـ تقول إنك ستبدأ أمراً يغيّر مجرى حياتك. وإنك محظوظ في الحب. وتوجد امرأة غير عابرة بين أوراقك.

ـ ما معنى غير عابرة؟

ـ ليست سحابة صيف، مثل السُحُب التي مرت.

ـ فقط؟

ـ ستسافر وحدك خارج هذه القارة لفترة قصيرة.

تواصلت الاتصالات الهاتفية ما بين طارق وكارول، واشترى خطاً خلوياً خاصاً به، لا يعرف رقمه سواهما.

كان اتصاله بها كل يومين أو ثلاثة أيام على أقصى تقدير، وكانت تخبره بما فعلت وما اشترت، وكان يقول لها رأيه في آخر حلقة مباشرة رآها فيها، وأين يذهب مع أصدقائه، ويسألها متى ستأتي إلى لبنان.

ـ طارق.. أنا لست مراسلاً يتحرك دائماً. سأحاول أن أزور لبنان بعد شهرين.

ـ لكنني اشتقت إليك.

ـ رغم انك تراني أسبوعياً؟

ـ كل الناس يشاهدونك أيضاً، لكن هل هم مثلي؟

من المؤكد أنه لم يكن مثل كل الناس بالنسبة لها. لكنها كانت تحس في قرارة نفسها، أنهما يشبهان خطّين

متوازيين للسكك الحديدية التي تسير فوقهما القطارات، ولا يمكن أن يلتقيا لعدة أسباب. ورغم ذلك استمرت في التجاوب معه، ولم تصدّ محاولاته للتقرب منها، أو تتجاهل التفكير فيه وهي وحيدة في شقتها في روما. ولطالما يتصرف الإنسان عكس ما يمليه عقله عليه.

أصرّ طارق أثناء زيارتها التالية إلى بيروت أن يصطحبها إلى منزله، في دعوة على العشاء، وتعمّد أن يكون جميع أفراد أسرته موجودين على المائدة.

ـ ماذا سيقولون عن هذه الدعوة؟ سألته كارول.

ـ الأمر واضح للغاية، لأنه لم يسبق لي دعوة فتاة على العشاء في منزلنا.

ذهبت كارول برفقته وهي لا تعلم أنه لم يشر إليها بين أهله. أخبرهم فقط أن فتاة ستكون معهم على العشاء بعد غد ليروها عن قرب، وليفعل الله ما فيه الخير لهما بعد ذلك.

ـ هل هي كارول أبو النصر أم فتاة تشبهها؟ سألته أمه لوس وهي تصافحها أمام باب فيلّتهم.

ـ هي كارول نفسها.

ضمّت أمه كارول بيدها اليسرى، وانحنت كارول لتتلقى قبلتها على خدها، وهي ترحب بها وتقول لها إنها تراها أسبوعياً، وتحب برنامجها كثيراً.

ـ رغم إنك لا تتكلمين اللغة العربية بطلاقة.. قالت كارول.

ـ بالعكس.. أنا أفهم كل شيء، لكن يستحيل أن تكون لكنتي مثلكم.

وتوالت المصافحات بعد ذلك، لكن ليس بحرارة مصافحة الأم لها. ومضت فترة العشاء في أجواء مريحة، تحدثت فيها كارول عن طبيعة عملها، وتجاذب الجميع أطراف عدة أحاديث اجتماعية وفنية. وتحدث أبو طارق معها عن إيطاليا التي زارها عدة مرات.

وكان انطباع كارول أنهم عائلة متماسكة، يسودها روح البساطة، رغم غناهم الواضح. كما لفت نظرها أن الشخص الوحيد الذي كان متحفظاً تجاهها في الحديث هو أخوه روبير.

ـ ماذا تنوي أن تفعل مع كارول يا طارق؟ سأله أبوه في اليوم التالي، أثناء فترة الغذاء.

ـ نحن في فترة تعارف. وإذا استمرينا على هذا المنوال والانسجام ولم تظهر أي أمور غير مستحبة، سأطلب يدها.

ـ بهذه السرعة؟

ـ هل نسيت ما قلته لي منذ بضعة شهور؟

ـ لم أنس.. لكن..

ـ لكن ماذا يا أبي؟

ـ أنت تعلم أنني أشمّ الناس وأتذوقهم من خلال خبرتي، ولا اعتراض لي على كارول، لكنها..

ـ لكنها ماذا؟ سأله طارق وهو يتململ.

ـ نجمة.

ـ ماذا تعني بنجمة؟

ـ لا أعرف كيف أشرح لك.. اعتبره مجرد إحساس مؤجل تفسيره.

كان المتحمّس الأول لزواج طارق من كارول في الأسرة هي أمه لوس، لأنها حسب ما قالت إنّ أخلاق الفتاة لا غبار عليها، بالإضافة إلى جمالها وهو قيمة في حدّ ذاته. وحثت طارق على التفكير فيها بجدّية.

وفي حوار جانبي ما بين مجيد وحماته، قالت له إنّ كارول فتاة جيدة، لو كان لا يريد أن يناسب أغنياء من مستواه، وهي على ما يبدو لها قدر ابنه.

ـ قدره؟

ـ مثلما كان قدرك أن تعيش فترة، وتتزوج في ساو لويس. هل نسيت؟

ـ لم أنس، لكن هل بصّرت له؟

ـ هو طلب مني حتى قبل أن تزورنا كارول.

كان مجيد صادقاً عندما تحدث مع ابنه وحماته عن

كارول، لأنه لو كان يفكر في مصاهرة الأموال، لأشار إلى ابنه باتجاه ثلاث فتيات على الأقل، من أسر تماثله أو تزيد عنه غنى. كان غير مرتاح لوظيفتها وموقعها البعيد تحديداً، وأمر آخر لم يستطع تسميته، لكنه ترك الأمور تسير كما هي، ولم يشأ استباق الأحداث.

توالت الاتصالات الهاتفية بين طارق وكارول، وأحسّا من خلالها أن ما بينهما ليس شيئاً عابراً، بعد أن أضاءت على أمور مشتركة بينهما زادت بهجة كل منهما بالآخر. وخدمت الظروف الحبيبين بذهاب كارول لمدة أسبوع، لتغطية إحدى مهرجانات بيروت الصيفية لشركة إنتاجية تملكها محطة التلفزيون التي تعمل بها.

سألت كارول جدته في زيارة لمنزلهم من إحدى الزيارتين الخاطفتين لعائلته، عن مدى إيمانها بتبصير "أوراق التاروت" الذي تجيده، حسب ما عرفت من طارق، أو أن الأمر مجرد بلسمة لقلوب الناس بكلمة أمل تقولها لهم.

ـ تأكدت من حادث مؤلم مرّ في حياتي، بوجود حدس وإلهام عند الإنسان يقول له بما لا يراه. قالت جدته.

ـ وما هو؟

سيطر عليّ هاجس غريب منذ سنوات طويلة، بينما

كان زوجي يغادر المنزل إلى عمله صباحاً، يهمس لي بأنني لن أراه بعد هذه اللحظة.

ـ وماذا حدث؟

صدمته عربة محملة بالأخشاب، يجرها جوادان جامحان عند زاوية الشارع، وتوفي متأثراً بجروح خطيرة في رأسه.

ـ واتجهت للتبصير بعد هذا الحادث الفظيع؟

ـ لا. حاولت أن أفهم: هل يمكن معرفة مصير الإنسان وكيف؟ وتعلمت قراءة "التاروت" وأنا أحاول ذلك.

كان الإحساس بالأمان وكارول مع طارق أو بين أفراد أسرته، حافزها الداخلي المهم في استمرار هذه العلاقة العاطفية، كما كان الترابط الأسري بين أفراد عائلته، من الأمور العديدة التي شدّت انتباهها وشعورها نحوهم، ولم يؤثر فيها موقف أخيه المحايد منها.

وجاءت زيارته لمنزلها لتؤكد لها جديته وصدق احساسه نحوها، رغم عدم وضوح نهاية العلاقة بينهما، حسب ما قالت لأمها عما بينهما باختصار.

استفسر طارق في إحدى مكالماته الهاتفية معها، بعد سفرها إلى مقر عملها في روما، عما إذا كانت مرتاحة إلى علاقتهما.

ـ كثيراً.
ـ وما هو أنسب شيء نفعله لتستمر؟
ـ لا أعلم.
ـ هل توافقين إذا تقدمت لخطبتك؟
ـ .....
ـ لم أسمع جواباً.
ـ إنني دائما أؤجل التفكير في هذا الأمر.
ـ ما يعني أنك فكرت فيه.
ـ أكذب إذا قلت لا.
ـ وما هي أسباب خوفك؟
ـ ما رأيك أن نكون صديقين مخلصين فقط؟
ـ تحدثي في الأمر الذي أعنيه مباشرة.
ـ أنت تعلم أنني أكبر عمراً منك، وأنتم أغنى من عائلتي بمراحل كثيرة جدا.
ـ ربما يكون ما تقولينه محور أحاديث أسرتي الجانبية، رغم شكّي في ذلك. ماذا لديك أنت لتشجعيني؟
ـ تمنياتي أن يتم الموضوع على خير.

ذهب طارق وأبوه وأمه إلى منزل كارول، ليطلب والده خطبة ابنه إلى ابنتهم بشكل رسمي، في غياب الخطيبة المعنية بالموضوع، نظراً لظروف عملها خارج البلد. وبعد موافقة أمها، التي هي بالتأكيد موافقة كارول

التي أخبرت أمها مسبقاً بأمر الزيارة، طلب والد طارق من ابنه أن يتصل بخطيبته هاتفياً ليعُلمها بما تم.

توالى جميع الحاضرين على تهنئة كارول، التي اتفق وجودها على الدرج وهي تصعد إلى منزلها في تلك اللحظات. وأسرعت صعودها لتتكلم معهم، وهي جالسة على أقرب كرسي لباب بيتها. وباتت ليلتها في أرق بسبب سعادتها، ووجودها وحيدة مع هذا الخبر المفرح في روما.

ذهبت كارول في إجازة لمدة أربعة أيام، تقع ما بين موعدّي برنامجها الأسبوعي، حتى لا تقطع تواصلها مع المشاهدين، لحضور خطبتها التي ستتم في المطعم، الذي شهد أول لقاء بينها وبين طارق، نظراً لعدد المشاركين الكبير من العائلتين وأصدقائهما، وكلمسة عاطفية من الخطيبين تجاه هذا المكان.

وقد أحسّ طارق وهو يقف في شرفة مطار بيروت لاستقبالها، أن الطائرة التي تقلها تهبط كحمامة بيضاء على المدرج الجنوبي، وتحمل بشرى خير لهما.

حضرت الخطيبة حفلها وهي ترتدي فستاناً خمري اللون، اشترته من روما، وارتدى طارق بذلة بيضاء ووضع فراشة خمرية على قميصه الأبيض، وكانت هذه الملابس هديتها له من عاصمة الذوق والأناقة. وشاركهما عدد كبير في هذه المناسبة من أقاربهما والمدعويين وصحافيين أتوا

لمشاركة زميلتهم، وتغطية الحفل للصفحات الاجتماعية في الصحف والمجلات.

ـ لم أتخيّل انك ستكون بهذه الأناقة باللون الأبيض. همست كارول لطارق عندما أُتيحت لها الفرصة.

ـ وأنت في منتهى الأناقة دائماً.

وعلى رغم السعادة الغامرة لأسرة طارق، بدا أبوه شارداً في بعض الأحيان.

ـ هل تتذكر يوم خطوبتنا؟ قالت له زوجته لوس.

ـ نعم، وأسأل نفسي: كيف سيتزوجان وكل واحد منهما في قارة؟

ـ وهل نسيت نفسك كيف..

ـ لم أنسَ، لكن عندما تزوجنا كنا في مكان واحد.

ـ حاول أن تستمتع بالحفل، كل إنسان عنده ظروفه.

كان محمد دياب كعادته في الحفلات، يتحرك بين المدعوين، يلقي تعليقاً هنا ويستمع إلى نكتة هناك، وبينما كان يهنئ صديقه مجيد وابنه طارق ويثمّن ذوق العريس في اختيار عروس العمر، ويؤكد لمجيد أنه لم يتخيل أبداً أن الليلة التي وقع فيها، حسبما كان يقول عن تجربته القريبة من الموت، ستكون سبباً في جمع هذين القلبين، شدّ انتباهه صمت شبه تام بين المدعوين، وموسيقى راقصة تصدح في المكان.

ـ أمر غريب يا مجيد، هل يستمع هذا الجيل إلى موسيقى عبد الوهاب؟ سأل محمد دياب.

ـ هل هذه المقطوعة له؟

ـ أكيد. اسألني أنا عن كل ما لحّن عبد الوهاب.

ـ ولماذا يتحلق معظم المدعوين هكذا في وسط المطعم؟

ـ لا بد أن إحداهن ترقص.

ـ ولماذا صمتوا وكان ضجيجهم يملأ المكان؟

ـ وقفت فتاة لا تتعدى الخمس سنوات بينهم فجأة، ولم ينتبهوا لها سوى وهي تقول:

ـ عمو طارق.. العروس ترقص.

جذب محمد دياب طارق من يده، وطلب من مجيد أن ينتظرهما لأنه رجل كبير ومحترم، وشقّا طريقهما بين الناس، وعندما وصلا إلى أول دائرة من المتحلقين، كانت كارول تختم رقصتها.

وصفّق المدعوون بحرارة، وترددت في أرجاء المكان زلاغيط بعض النسوة، وأخذ بعضهم وبعضهن يطلبون منها أن ترقص مرة أخرى.

ـ أكيد؟ سألتهم هي.

ـ أكيد.. أكيد.. أكيد. هتف المدعوون بنداء حماسي.

رفعت كارول كفيها إلى الرجل المسؤول عن إعداد

الأغاني، وأشارت بأصابعها إلى العدد ستة، واستمرت في وقفتها رافعة يديها وأناملها متعانقين، وهي تبتسم للتعليقات الطائرة من هنا وهناك، وتحاول أن تستجمع نفسها.

وعندما بدأت المقطوعة الموسيقية بدا وكأنها تبتسم لآلات الكمان التي جعلت تأخذها ممن هم حولها إلى أجواء داخلية أخرى، ومن جُمل آلات الكمان انطلقت المعزوفة إلى فاصل من الناي بمصاحبة كل وتريات الفرقة الموسيقية، لتتجه بعد ذلك إلى الجملة الشرقية المعروفة للألحان الراقصة بآلات الإيقاع، تردد آلة القانون صداها من بعيد، ونقرة خفيفة من أحد عازفي الكمان بإصبعه على آلته وكأنه يداعب من ترقص بصفرة إعجاب، لتنتقل المعزوفة بعد ذلك إلى إيقاع أسرع لبّته كارول بانسياب وتناغم وكأنها تسبح بين الجمل الموسيقية، وختمت رقصتها المتنوعة السرعات بين تصفيق متواصل من المتحلقين حولها.

تابع طارق خطيبته وهي ترقص، ولاحظ استسلامها التام للموسيقى، وأنها كانت ترقص في مساحة صغيرة جداً رغم اتساع المكان الذي ترقص فيه، ولم تنظر إلى المدعوين أو حتى له، وأدت رقصة جسّدت فيها الحركة المنسجمة بدقة مع الجمل الموسيقية، مع استعمال حركة

الخصر لتنتقل من أداء إلى آخر حسب الجملة الموسيقية. بدت له كراقصة محترفة، تعبّر أحياناً عن الغوى وبدائية الإنسان، لدرجة أنه رآها للحظة إنسانة أخرى لا يعرفها.

ـ أين تعلمت الرقص؟ سألها بعد أن طلبت من الذين تمنوا عليها أن تغني، فترة راحة.

ـ داني (تقصد الفنانة المرحومة داني بسترس) علمتني.

ـ لكنه رقص يدل على تدريب.

ـ أمارسه وحدي لأحافظ على رشاقتي ولياقتي البدنية.

ـ وهل الكومباكت ديسك (القرص المضغوط) لك؟

ـ يا عزيزي: لا أحد يحتفل بك. أنت تجهّز كل شيء وتدعو الناس.

وأضافت وهي تضحك: حتى الموسيقى التصويرية.

غنت كارول لضيوفها بعد فترة "موال عتابا"، اتجه محمد دياب بعد نهايته نحوها وقبّل يدها، ثم غنت بعده أغنية " حبايبنا حوالينا " للفنان زكي ناصيف، والمدعوون يرددون وراءها كل بيت زجلي، ومحمد دياب بجوارها ممسكاً بيدها وينظر إليها بكل مودة وحنان.

بدا الأمر واضحاً لطارق أن كارول تحاول إسعاد ناس يحبونها، ويعتبرونها إحدى كواكبهم المفضلة، وأدهشه ما تفعله دائرة النور حول المشهورين في قلوب الناس الذين في الظل. كما لاحظ تأثير غياب أبيها الكبير على أمها في

تلك الليلة، رغم سعادتها الظاهرة. بدت أمها هدى له وكأنها تتعثر في ثيابها وهي تمشي، وتنتظر قدوم أحد وهي تجلس، وتغالب دموعها أحياناً.

أحست كارول وهما في طريقهما إلى مطار بيروت، لتستقل طائرتها التي تقلع بعد منتصف الليل، أن طارق يفضّل الصمت أغلب الوقت، على غير عادته وهما سوياً، ما جعلها تصمت هي أيضاً. لكنها حاولت أن تكسر ظلمة الطريق وسكوتهما، مرة أخيرة.

ـ بماذا تفكر؟

ـ بدأت أتعود على وجودك خلال هذه الأيام القليلة.

ـ وأنا أيضاً.

ـ .....

ـ هل تأخذ إجازة سنوية من عملك؟

ـ ذكرتني بشيء مهم..

ـ ما هو؟

ـ بلّغي إيفون أن لا تدفع أقساط السيارة في البنك.

ـ سأبلغها. لكن لم تجاوبني.

ـ أحياناً.

ـ وهل أخذتها هذه السنة؟

ـ لا.

ـ لماذا لا تحاول أن تزورني في روما؟

ـ فكرة لم تخطر لي على بال.

ـ هل تعدني بزيارة، وأعدك ألاّ تندم؟

ـ بدأت أشتاق لرؤية إيطاليا من سماعي أحاديثك عنها.

ـ هل أتوقع زيارتك قريبا؟

ـ نعم.

ـ وهل يمكن أن تبتسم حتى أسافر وأنا غير متوترة؟

تابع طارق طائرة كارول من شرفة المطار، ولم يغادرها إلاّ بعد أن اختفت أنوارها في عتمة ليل أيلول فوق البحر الأبيض المتوسط.

(٥)

أقلعت الطائرة التي سافر على متنها طارق في الواحدة والنصف صباحاً، من مطار بيروت، وهبطت في مطار "ليوناردو دافنشي" في الخامسة والنصف فجراً بتوقيت روما، الذي يسبقه توقيت لبنان بساعة.

وأمضى الثلاث ساعات والنصف ما بين استغراقه في أحلامه الوردية، شأنه شأن أي خطيب ذاهب لزيارة خطيبته، وحالة الترقب وتوقع ما هو جديد ومُشوق، في بلد سمع عنه الكثير من كارول، وإغفاءة قصيرة يقع معظم المسافرين فيها ما بين منتصف الليل والفجر، يتجدّد نشاطهم بعدها.

أحس طارق أنه يهبط في مطار ضخم فعلاً، على رغم الظلام الذي كان لا يزال مسيطراً على أجواء العاصمة الإيطالية، لأن الطائرة سارت حوالى عشر دقائق على أرض المطار، لتصل إلى "الإصبع المطاطي" الذي يعبره الرّكاب إلى الدوائر الجمركية.

وبمجرد خروجه سمع صوت كارول يناديه، من بين الواقفين أمام باب الخروج، وخفق قلبه بشدة وهي تطبع على خده قبلة سلامة الوصول. أحس أنها تنتمي إليه، وليس مجرد خطيبة ما زالت تعيش بعيدةً عنه وعن خصوصيات حياته. وقالت له بعد العبارات التقليدية التي نُرددها على أبواب الوصول في المطارات والمرافئ، وهي تهم بمساعدته في دفع عربة الحقائب التي تحمل حقيبتيه:

ـ تنتظرك عشرة أيام لا مجال فيها للراحة.

ـ هل أعددت كل شيء كما قلت على التلفون؟

ـ جدول حافل سيكلفك نقوداً كثيرة (وهي تضحك).

ـ المهم أن أرى ما جعلتيني مشتاقاً إليه.

ـ سترى بقدر أيام زيارتك.. تحتاج إيطاليا إلى عمر آخر لرؤيتها.

استقلا سيارتها الموجودة في موقف السيارات، واتجهت كارول إلى الطريق الدائري المحيط بروما، لتغادره في أقرب مخرج يوصلها إلى منزلها الكائن في شارع "20 سبتمبر"، بينما كانت أنوار الفجر تبدأ في الانتشار، وفوقهما غيوم تشرين الأول المتفرقة تتهادى في السماء.

ـ على فكرة، ستقيم في شقتي في الفترات، التي

سنعود فيها إلى روما من زياراتنا المتعددة. قالتها بعفوية بالغة.

ـ وأنتِ؟ سألها وقد أدرك حقيقة وجودهما معاً، في بلد ليس بلدهما، إضافة لتوقعه النوم في فندق.

ـ في شقة زميلة لي في بناية مجاورة لي.

بدأ طارق يستوعب ما قالته كارول عن جمال إيطاليا، من خلال ما رآه من بيوت وميادين وبعض الشوارع المرصوفة بالبازلت وليس الإسفلت الحديث. وأحس وكأن ما فعله التاريخ وعراقته، قد جُبل بالحداثة العمرانية بدون تشويه لذاكرة الأماكن.

وأخبرته كارول وهما في السيارة أنها أخذت إجازة أثناء فترة وجوده، ما عدا ساعتين "تصوير خارجي" في يوم وصوله بعد الظهر، وساعة لتؤدي فيها برنامجها بعد خمسة أيام.

ـ لقد اقتربنا من منزلي. قالت له.

ـ ما هذه النافورة الضخمة الجميلة؟

سألها وهو ينظر إلى نافورة كبيرة تتوسط ميداناً فسيحاً، تندفع المياه من حافتها الدائرية، لتصب على التماثيل العارية البرونزية الموجودة في قلبها، وهي بدورها ترش المياه منها إلى حافة النافورة.

ـ فونتانا دل نايادي، والمكان "بياتسا دللاّ

روبوبليكا". قالت له وهي تنظر في مرآة سيارتها إلى النافورة البديعة، التي أصبحت خلفهما، وطلبت منه أن يتأمل قصر "إيسبوزيتسيوني" المشيّد بشكل نصف دائري بجوار النافورة، حتى يلائم شكل الميدان.

وفهم ما قالته، نافورة نايادي في ميدان الجمهورية، لتشابه اللغة البرتغالية التي يتحدثها مع بعض الكلمات الإيطالية أو طريقة نطقها أحياناً.

غادرت كارول منزلها إلى شقة صديقتها، بعد أن عرّفته على الأماكن الضرورية التي سيحتاجها في البيت أثناء إقامته. وطلبت منه الاستعداد للذهاب إلى الغداء معها خارج المنزل ظهراً، لأنهما سيتوجهان إلى مكان التصوير الخارجي بعده، ومنه إلى محطة السكك الحديدية مباشرة ليستقلا القطار إلى فينيسيا.

ـ مع حقيبة ثياب تكفي ليومين؟ سألها وهما يتجهان إلى باب المنزل.

ـ أكيد.

أغلقت كارول الباب، وذهب هو لينام ساعة، ليقوم بعدها ويحلق ذقنه ويعدّ ثيابه استعداداً للذهاب، ولم ينس تعديل المنبه الذي بحوزته على توقيت روما، ليوقظه في حال طال نومه.

ذهبا بعد الغداء إلى أحد المطاعم القريبة من منزلها،

بسيارة الشركة التي تعمل بها، إلى "بياتسا دي سبانيا"، وجذب انتباهه هندسة الميدان البديعة.

كل الطرق المؤدية إليه تغطيها قطع البازلت الأسود، وفي وسط الميدان المستطيل الشكل توجد نافورة "باركاسيا" وفيها مركب رخامي أسطوري صغير تصبّ المياه منه إلى البركة.

وقف طارق وظهره باتجاه شارع "كوندّوتي" وفيه المحلات التي تحمل أسماء أشهر ماركات الثياب والساعات والمجوهرات والعطور العالمية، ويُطلق عليه "أغلى شارع في إيطاليا"، وأخذ يتأمل العامود الشاهق وفوقه تمثال "العذراء البتول" من على يمينه، ويوجّه نظره إلى الميدان ذي اللمسات الرقيقة الراقية، الذي ينتهي بقهوة ومطعم على الرصيف من الجهة اليسرى، وفي الوسط وأمام النافورة يوجد الدرج الأسباني المرتفع الشهير، الذي سُمي الميدان باسمه، وفي وسطه وعلى جوانبه الورود الحمراء المزروعة، على طوابقه الثلاثة التي تنتهي بكنيسة "ترينيتا داي مونتي" التي بناها الفرنسيون أعلى الدرج الأسباني، وفيها برجان شاهقان، ما يشكل مشهداً متكاملاً منسجماً، يلتحم بسماء روما الزرقاء، فينساب النظر عليه وترتاح العين.

كان أمراً طبيعياً أن تعرّف كارول عن خطيبها، لفريق

العمل الذي كان ينتظرها، ويعدّ أدوات التصوير والإضاءة، ويختار الأماكن التي ستتركّز فيها الكاميرات. وبعد الانتهاء من لمسات الماكياج على وجه كارول، بدأت تستمع إلى تعليمات المخرج. ولاحظ طارق ـ رغم موقعه البعيد نسبياً عنهما واستغراقه في التمتع بما حوله - أنها تنظر في عينيّ المخرج مباشرة وتستمع إليه، وكأنها غائبة عن الوجود من حولها، وتغيّر مزاجه في لحظة واضطرب وجدانه بشدة.

اقتربت كارول من طارق بعد انتهاء تعليمات المخرج، وعلى شفتيها ابتسامة لم يرها من قبل.

ـ طارق.. أتمنى أن تكون هذه آخر مرة، أرى فيها هذه النظرة المعتمة في عينيك.

ـ .....

ـ طارق.. على اللاعب والممثل أن يشرب تماماً ما يقوله المدرب والمخرج.

ـ .....

ـ إنه مجرد عمل، وأنت نفسك تنظر للسيارة وكأنها امرأة عارية. أنا رأيت ذلك بعينيّ.

ـ .....

ـ والانسجام مع المخرج يوحي له بأمور ويجعله يعطي أكثر.

ـ .....

ـ وعيب عليك أيضاً أن تشك في ذوقي في الرجال. إنه لا يوحي بشيء.

ابتسم طارق وبدأت أساريره تنفرج، وقالت كارول له، وهي تتأمل ابتسامته التي ارتسمت على شفتيه، وعقيرة المخرج ترتفع بالنداء: «Action».

ـ آخر مرة.. أزعل منك وأفشل في عملي الذي تعبت كثيراً جداً، لأصل إلى النقطة التي أنا فيها.

استغرقت رحلة القطار من محطة السكك الحديدية "ستاتسيوني تيرمني" في روما إلى فينيسيا حوالى خمس ساعات، لم يستمتع فيها طارق برؤية المشاهد من خلال النافذة، لأن القطار تحرك وظلام المساء يخيم على البلد، وطمأنته كارول إلى أن رحلة العودة ستكون فجراً، ما يجعله يأخذ فكرة عن طبيعة الأراضي الإيطالية.

ـ إنها بساط أخضر فيه جبال وبحيرات كثيرة. قالت له.

أحسّت كارول بمشاعر أنوثتها، أنَّ ما حدث في "بياتسا دي سبانيا" كانت غمامة رمادية عبرت بعد الظهر، وتمنت عدم عودتها في المستقبل. كما شدّ انتباهها مشاعر الحنان المتدفقة التي غمرها بها أثناء الرحلة. مشاعر لم تُقدر أنها موجودة في طباعه، لكنها عندما تذكرت ما

حدث في أول ليلة رأته فيها، والأداء والصوت الحنون تجاه الإنسان الراقد على الأرض، تأكدت أن هذه المشاعر بحاجة لمحرك لكي تظهر. واسترخت بين أريج الزهور التي بدأت تنمو بينهما أثناء الرحلة.

اندهش طارق لوجود مرفأ صغير مباشرة بعد خروجهما من محطة السكك الحديدية في فينيسيا، فاستقلّا منه حافلة نهرية تحركت بين لآلئ أضواء ضفتي القناة التي تسير فيها، وسمع كارول تتحدث في هاتفها الخلوي مع شخص باللغة الإيطالية.

ـ إنه موظف شركة لتأجير المنازل هنا. قالت له.

ـ هل سنقيم في منزل أو فندق؟

ـ في منزل ذي طابقين. أرخص بكثير من الفنادق.

ـ وكيف عرفت هذا الشخص ورقم تلفونه؟

ـ إنني هنا منذ دهور، وهذه خامس زيارة لي هنا.

ـ خامس زيارة؟

ـ وفي كل مرة أكتشف سحراً جديداً. كل مكان في إيطاليا له رونقه الخاص به. ستلمس ذلك بنفسك.

أخذت كارول مفتاحَيْ المنزل من الرجل الذي ذهب لينتظرهما عند المرسى/المحطة التي يوجد فيها المنزل. واتجها إليه في سكون ليل فينسيا المريح، وسارا في شوارع عتيقة جداً وضيقة، وهما يسمعان وقع أقدامهما

ويستنشقان عبير الورود المزروعة على كل النوافذ والشرفات، ويلتقيان ما بين آونة وأخرى بمجموعة من السواح، أو عاشقين ضيّعا طريقهما عن عمد.

ـ لا سيارات هنا كما ترى.

ـ أكيد. مساحة الطرق لا تسمح.

ـ تتكون فينيسيا من تسع وتسعين جزيرة صغيرة موصولة ببعضها بعضاً. ويمكنك الوصول إلى أي نقطة فيها، على الأقدام أو بـ"الغوندولا" التي تسير في القنوات وهي معظم شوارع البلد.

ـ كأن "الغوندولا» سيارة هذه المدينة الغارقة.

وقفت كارول وأغمضت عينيها، وأخذت نفساً عميقاً، وقالت بحب وهي لا تزال مغمضة العينين:

ـ نعم.

سألت كارول طارق قبل أن تصعد إلى الطابق الثاني في المنزل، عما إذا كان يمكنه أن يخمّن لماذا لا توجد منازل بطابق واحد في فينيسيا.

ـ هذا صحيح، لكنني لم أفكر في السبب.

ـ لأن حركة المدّ تكون عالية أحياناً ما يجعل مياه القنوات ترتفع وتدخل المنازل.

ـ وبداهة تدخل الطابق الأول حيث أنام أنا.

ـ هل رأيت كيف يجب أن يتحمل الرجال بعض

المشاكل من أجل المرأة؟

ـ أمر المدّ لا يسبب مشاكل عندي، يمكنني السباحة. وأنا على استعداد للتحمّل.

صعدت كارول إلى الطابق الثاني الداخلي، وظل هو في الطابق الأول، لينامـا على أن يلتقيان في الخامسة فجراً، ليشاهدا ويزورا أكبر عدد ممكن من الأماكن.

وانطلقا بعد نوم عميق في أول حافلة نهرية إلى محطة "سان مارك"، وشاهدا روائع الكنيسة التي سُمي الحي باسمها، ووقفا في الساحة الكبيرة جداً أمامها لالتقاط الصور التذكارية بين أسراب الحمام البري الذي يُطعمه السواح. ثم اتجها بعد ذلك لحجز تذكرتين لرحلة داخلية بين أهم جزر فينيسيا بعد الغداء.

وانطلقا بعد ذلك سيراً على الأقدام إلى كنيسة "سان جورج"، ليشاهدا أحد المعالم التي بناها فرسان العصور الوسطى. وتلاشى الحبيبان بين أسراب السواح من مكان إلى آخر، ومن محل لمحل ليشاهدا التحف الزجاجية التي تشتهر فينيسيا بصناعتها، ويشتريان ما يحلو لهما ليزينا به منزل المستقبل.

وقف طارق وكارول أمام "جسر ريالتو"، وفي عينيه علامات الإعجاب الشديد، لدرجة أنه لم يقل أي تعليق.

ـ هل أعجبك "بونتي ريالتو"؟

ـ إنه جميل فعلاً. شعب فنان.. كان من الممكن بناء مجرد جسر للعبور، بدلاً من تحفة فنية.

ـ لا تنسَ أن الذي أمر بتشييده، أراد تخليد اسمه أيضاً.

استقلا بعد غداء سريع تناولاه وقوفاً، المركب الذي طاف بهما بين أكبر وأهم ثلاث جزر في فينيسيا، وشاهدا مصانع السيراميك والزجاج الملوّن، وعادا مساء إلى المنزل، للاستحمام واستعادة النشاط لجولة ليلية قالت له إنه لن ينساها.

وقف طارق وكارول طويلاً أمام إحدى القنوات التي تصل المدينة الغارقة بعضها ببعض، وتأملا الأضواء البعيدة والقريبة التي تنتشر من القناديل الكهربائية قديمة الشكل وكأنها، قناديل كيروسين القرن التاسع عشر، وتجعل فينيسيا مثل لوحة تشكيلية من ذلك القرن. وعبرا عدة جسور رخامية عتيقة فوق القنوات، ثم ذهبا إلى مطعم في أحد الأزقة، وتناولا "الباستا" و"البيتسا"، أشهر نوعين من الأكل في إيطاليا.

ـ هل عندك المقدرة للسهر حتى الصباح؟ سألته كارول وهما على مائدة العشاء.

ـ لا أستطيع النوم بين هذا السحر والمدينة الخيالية وأجمل إنسانة رأيتها.

ـ هل تعلم أنني بدأت أكتشف شخصيتك؟

ـ وماذا وجدت؟

ـ إنسان رقيق يقدّر الفن والحرية، رغم مزاجك العصبي أحياناً، وماضيك النسائي الطويل.

ـ وأين ستأخذين هذا الرقيق الفنان؟

ـ في رحلة لن ينساها قمت بها مع زميلة لي وأجربها اليوم مع رجل.

ـ وهل فينسيا آمنة لهذه الدرجة ليلاً؟

ـ المكان الذي يأكل خبزه من السياحة يحافظ على السواح.

استرخى الحبيبان في "غوندولا" انسابت بهما وحدهما، في الأزقة المائية بين الأبنية التاريخية الجميلة، وأريج الزهور المتنوعة على الشرفات، والليل المرصع بأنوار النجوم الماسية المتراقصة، يقودها بحّار بثيابه التقليدية والقناع على وجهه.

وفجأة في أحد الأزقة المائية، ارتفع صوت بحار قادم بـ"غوندولا" أخرى ومعه عاشقان آخران بغناء ذي لحن وطبقة صوت معينة. أداء ذو طابع رجولي هذّبه مراس طويل ورطوبة ليل فينيسيا، وشاركه في غنائه بحّار "غوندولا" غرامهما، وألقى ركاب المركبين التحية بالأيدي. وابتعد المركبان عن بعضهما بعضاً، وصوتا

البحارين ينتشران في الأركان في هدوء الليل، ويختلط بصوت ال"غوندولا" التي تشق الماء.

سرى الحبيبان بعد هذه الجولة الفريدة، في عدد لا يعلمانه من الأزقة، وعبرا عدداً غير معروف من الجسور الرخامية، وهما متشابكا الأيدي دائماً والشفاه أحياناً كثيرة.

ـ يجب أن نعود حتى لا ينسانا القطار. قالت كارول له قبل الفجر بقليل.

ـ وماذا يحدث لو نسينا؟

ـ لن نشاهد أماكن أخرى.

أحسّ طارق بمجرد تحرك القطار من المحطة، أنه يفيق من حلم بديع. وغاب العاشقان في إغفاءة من شدة الإرهاق، ثم نهضا وتناولا إفطاراً سريعاً، ووصل القطار بهما إلى روما، بعد رحلة بين الجبال والجسور والأنهار والأنفاق.

زار طارق وكارول بعد الظهر كنيسة "السلّم المقدس"، وهو الدرج الذي صعد عليه يسوع المسيح في دار القنصل الروماني في أورشليم، ليُحاكم أمام بيلاطس البنطي. سلم حجري ذو ثمان وعشرين درجة مغطى بالخشب حتى لا يُبلى، يصعده محبّو المسيح من الأديان كافة، وهم راكعون على الركبتين.

ومرّا بعد ذلك على ضريح فيكتور إيمانويل أول ملك لإيطاليا الحديثة في ميدان فينيسيا، المجاور لكنيسة السلم المقدس.

ـ من هذه الشرفة في هذا القصر كان الدوتّشي بنيتو موسوليني يلقي خطبه النارية، أمام الجماهير التي تهتف باسمه. قالت له كارول وهما واقفان أمام الضريح، وهي تشير بيدها إلى قصر ومتحف فينيسيا.

وزارا بعد ذلك معبد "جوبيتر" في الكابيتول، بعد أن صعدا درجه الحجري الذي يبلغ ثمان وستين درجة، ووقفا أمام تمثال الإمبراطور ماركوس أوريليوس على صهوة حصانه، المصنوع في القرن الثاني للميلاد.

ـ كأن صانعه أنجزه أمس. قال طارق وهو يتأمل التمثال النحاسي.

وتجولا بعد ذلك بالسيارة في الوسط التاريخي لروما، وأوقفت سيارتها أمام "الكولسّيو" المضاء من الداخل والخارج، وهو المكان الذي كانت تقام فيه مباريات المصارعة بين البشر، أو المصارعين والحيوانات الضارية حتى الموت.

وبينما كانا يتناولان طعام العشاء، في اليوم نفسه في مطعم "روغانتينو" في شارع "فيتوريو ڤينيتو" الراقي، قطعت كارول فجأة حديثها عن مدينة نابولي وجزيرة كابري

اللتين سيقومان بزيارتهما في فجر اليوم التالي وقالت له:

ـ قبل أن أنسى.. هل تعلم لماذا اخترت "روغانتينو" وهذه الطاولة؟

ـ ربما لأنهما.... لا أعلم..

ـ كان الملك فاروق آخر ملوك مصر يحب الجلوس هنا.

ـ على الطاولة والكراسي نفسها التي نجلس عليها؟

ـ إدارة المطعم تحتفظ بها كما هي.

ـ هل تودين أن تكونين ملكة في يوم من الأيام؟

ـ لا. لا أحب أذى غيري أو أن أُؤذى (وأضافت وهي تبتسم بقلق) أو أُخلع. أحاسيس مخيفة لا أحبها.

ـ ماذا علمتك إيطاليا؟

ـ علمتني عشق التفاصيل البديعة، مثل جلوسنا إلى هذه الطاولة. وعلمتني ما هو الفن، وكيف أرى الجمال، وأتذوق الطعام ولا آكل فقط.

وقالت بعد فترة من السكوت: أنا مدينة لإيطاليا بالكثير.

بينما كان طارق وكارول يتمشيان في أقدم سوق في نابولي صباح اليوم التالي، وبعد أن قاما بزيارة قلعتها القديمة الشهيرة الموجودة على البحر بجوار المرفأ السياحي، أحس بسرعة انتقالهما من مكان لآخر، وشعر

كأنه يلقي نظرة فقط على أماكن في غاية الفخامة والأناقة. نظرة غير مشبعة لكنها تكفي ليقول صاحبها: زرت إيطاليا.

كما كان مندهشاً من نشاط كارول وسرعتها في الانتقال من أثر لآخر، ومن سوق إلى ساحة، وأحسّ أيضاً أنها قد اختارت أبرز الأماكن لإلقاء نظرة عليها.

ابتسمت كارول وهي ترى طارق يضع كفه اليسرى على رأسه، ويُصعِّد النظر إلى جبال كابري، بينما أشعة شمس الغروب تمشّط شعر أشجار الجزيرة، بعد نزولهما من السفينة التي أقلتهما من نابولي، وكأنه لم يستطع أن يعبّر عن جمال ما رآه سوى بهذه الطريقة الطفولية.

ـ يبدو أنه لا توجد سيارات هنا أيضاً؟ سألها طارق.

ـ ولا أي نوع من أنواع التلوث الكيميائي.

وصل الخطيبان إلى الموتيل الذي سيبيتان فيه ليلتهما في كابري، واتجه كل منهما إلى غرفته التي حجزتها كارول بالبريد الإلكتروني. وعادا والتقيا بعد الاستحمام وتغيير ملابسهما بعد جولتهما في نابولي مشياً طوال النهار.

يختلف ليل كابري عن ليل فينيسيا تماماً. ليل كابري راق، لا مجال للتجوال فيه، لأن كل البنايات والأشجار والطرقات العتيقة الضيقة تتشابه، بينما ليل فينيسيا شعبي بسيط قريب من القلب، ومجرد التجوال فيه متعة، لأن الناس لا تنتقل من مكان لآخر فقط، لكنهم يستمتعون

بالسرى الليلي.

كانت عتمة البحر المرصعة بأضواء اليخوت الراسية، على يسار طارق وكارول وهما يتناولان طعام العشاء، في أحد المطاعم الموجودة فوق التل المشرف على أحد خلجان كابري الكثيرة، بينما جلس الساهرون على الموائد المتناثرة حولهما. وكانت الموسيقى والأغاني النابوليّة (نسبة إلى نابولي) توزع على الجالسين مشاعر الانسجام، بمساعدة نبيذ كابري السلس.

ـ كم كأساً تشرب عادة؟ سألته كارول.

ـ واحدة فقط إذا شربت. دوام عملي المبكر وطبيعته لا تسمحان بأكثر من ذلك.

ـ لكنك تشرب الكأس الثانية هذه الليلة.

ـ المكان والصحبة هما السبب.

ـ هل تعلم انني توقعت حدوث شيء بيننا، منذ أول لحظة رأيتك فيها، لكن لم أتخيل أن نصل إلى هذه النقطة.

ـ تقصدين ارتباطنا بالزواج؟

ـ نعم. ولا يمكنك أن تعرف تأثير ما فعلته مع محمد دياب علّي.

ـ لماذا؟

ـ توفي أبي أمامنا في المنزل، بالسرعة والسبب نفسه.

ـ الله يرحمه. وكيف كان شعورك وأنا أتحدث معك ولا أعرف من أنت؟

ـ أحسست بارتياح وبأنني غير مقيدة.

ـ لم تنزعجين؟

ـ لا. شعرت أنك تنظر إليَّ بدون أي خلفية.

ـ والليلة؟

ـ طارق.. هل أحسست بالغرام من قبل؟ Passion؟

ـ مطلقاً.

ـ أنا أول مرة أشعر به، لكنني لا أستطيع أن أعطي بدون ارتباط، دعني أتصرف معك بعفويتي. أحب ذلك كثيراً، ويساعدني أن أحبك.

أضفى الفجر على كابري زياً جديداً، وطاف طارق وكارول حولها في أول رحلة بالقارب الذي ينطلق من المرفأ الرئيسي، وتوقفت الجولة مرتين لينتقلا إلى قارب أصغر ليدخل بهما مع سواح آخرين إلى كهفين صخريين، جدرانهما وأرضيتهما مرصعتان بالعقيق الأحمر، ومياههما لازوردية، وارتفعت أصوات البحارة الذين يقودون المراكب الصغيرة بالغناء النابوليّ هذه المرة، وهو يشبه الغناء الأوبرالي على المسرح، بينما غناء فينيسيا مدرسة مناجاة الحبيبة تحت الشرفة، كما كان في العصور الوسطى.

وعند انتهاء الدوران حول الجزيرة، تمنت عليه كارول أن يرمي عملة فضية في مياه البحر، وهو ينظر إلى التمثال الذي يؤدي التحية للناس على مدخل المرفأ، ليعودا في يوم من الأيام إلى كابري. وفعلها طارق من كل قلبه.

ـ ما من قرية أو مدينة زرناها إلاّ ولاحظت وجود مقابر فيها، ما عدا كابري. قال لها وهما على رصيف الميناء.

ـ هل تعتقد أن الناس يموتون هنا؟ إنهم يعيشون فقط.

تعمدت كارول تنوّع الأماكن التي اختارتها للزيارة مع طارق، وكأنها تحثه على التعلّق بها، وتهمس له بشكل غير مباشر أنها تتمنى الحياة في إيطاليا. ومن المؤكد أن روما قد تركت الانطباع الأهم في نفسه، رغم أنه أحب وانفعل مع جميع الأماكن التي زارها.

ـ أحسّ أن روما فيها شيء من كل إيطاليا.

قال طارق لكارول وهما يقفان أمام "فونتانا دي سانتا ماريا" في "تيراس تيفري"، حيث المطاعم والبيوت الأثرية والكنائس العتيقة والمتاحف تتجاور في تناغم مثير.

ـ ما عدا الهدوء وعدد السيارات.

ـ لاحظت أن السكان موزعين في إيطاليا توزيعاً صحيحاً.

ـ ملاحظة سليمة تماماً وثاقبة.

ـ وكأن كل المدن والقرى هنا بنيت أساساً حول الميدان الأكبر، وفيه الكنيسة والسوق ونافورة المياه.

ـ هل تتخيل أنني لم ألاحظ ذلك، رغم السنوات التي قضيتها هنا. بدأت أشك في تخصصك العلمي.

نصحته كارول بارتداء ملابس أكثر سماكة، قبل التوجه إلى إحدى محميات محافظة "أبروتزو" جنوبي روما، لأن المنطقة جبلية مرتفعة، باردة حتى في الصيف.

وبمجرد أن تركت كارول الطريق السريع المغلق، الذي يربط كل إيطاليا، لتأخذ الطريق الذي يؤدي إلى المحمية الطبيعية "بيسكاسيرولي"، بدا له وكأنه يدخل ردهة طويلة في دنيا النباتات والأشجار من جميع الألوان، تتخللها بقع من القرى المحافظة على طابعها المعماري منذ أكثر من أربعمائة عام وأكثر أحياناً، ولاحظ أن السيارة تسير على ما يشبه رصيف مُسيّج منحوت على حافة الجبل، يوصلهما إلى رصيف آخر في جبل آخر.

وشرحت كارول له أثناء انسياب السيارة بين اللوحات الطبيعية المتجددة، وممرات الأشجار الفارعة الخضراء، أن هذه المحمية لا يوجد فيها مصانع تلوّث الهواء أو تؤذي مصادر المياه ومكونات التربة.

ـ إذا كانت إيطاليا كلها بساطاً أخضر حسب ما أرى، ماذا تعني المحميات الطبيعية؟

ـ تعني أنها أكثر اخضراراً، محمية من التلوث بقوانين، وفيها زهور وأشجار وطيور وحيوانات نادرة.

ظهرت فجأة ومن بين شلالات اللون الأخضر التي تنهمر على النظر من كل الاتجاهات، بحيرة صغيرة وادعة جميلة يطير فوقها بعض البط البري والعصافير، وعندما اقتربت السيارة ظهر جسر يعبرها عند المنتصف تقريباً.

ونزلا لإلقاء نظرة، وعبرا الجسر العتيق الحجري، ووصلا إلى كنيسة صغيرة جداً، تفوح منها رائحة الرطوبة والقدم، لأنها مبنية داخل صخور الجبل.

ـ هل تعلم أن حفنة نادرة من الناس يفضلون الزواج في هذه الكنيسة؟

ـ الحق معهم. كنيسة مميزة لمناسبة خاصة ولا تتكرر.

ـ ويقام كوكتيل العرس على هذا الجسر، والشرفة الصغيرة نسبياً التي نقف عليها أمام باب الكنيسة.

ـ هل رأيت فعلاً مثل هذا العرس؟

ـ نعم.. وقد تصادف العرس وأنا أمرّ من هنا ذات بعد ظهر، ونزلت وشاركتهم.

ـ وكيف كان العرس؟

ـ كان بسيطاً وعفوياً. أهرب إلى البساطة أينما وجدتها، من الحياة المُركبة التي أعيشها.

أكمل الحبيبان مشوارهما صعوداً حتى وصلا إلى

بحيرة قرية "سكّانو"، وطلبت كارول منه وهو يصوّر بكاميرا الفيديو أن يقترب بعدسته من مكان محدد.

ـ ما هذا؟ سيدة عارية تقف على الشرفة؟

ـ دقق نظرك.. إنها مجرد تمثال.

ـ هل يمكن أن نقترب منها؟

اتجهت كارول بسيارتها إلى أقرب مكان لثيلّلا "المرأة العارية"، التي تنتظر وهي متكئة بمرفقيها على سور الشرفة المطلة على البحيرة. ونزلا من السيارة واقتربا حتى وصلا إلى سور الفيلا الخشبي.

ـ هل جرّبت الانتظار يا طارق؟

ـ أكيد.

ـ جرّبته وأنت مجرد من كل أحاسيسك ما عدا ما تنتظره؟

ـ وكنت أخاف ما أنتظره.

ـ تخاف ألاّ يأتي أو منه؟

ـ الاثنان معاً.

ـ هل يمكن أن أعرف موضوع انتظارك؟

ـ أن تكونين غير الإيحاء الذي لمسني أول مرة تكلمت فيها إليك. قال وهو يتنفس ببطء شديد.

ـ لم أفهم.

ـ تكونين مجرد شكل خارجي جميل، فارغ من الداخل.

ـ وماذا كنت ستفعل؟

ـ كنت سأنساك وأنا في غاية الندم.

تناول طارق وكارول غداءهما عصراً في أحد مطاعم بلدة "بّريا"، في المحمية الطبيعية "بيسكاسيرولي" التي تبعد عن "سكانّو" حوالى عشرين كيلومتراً، وتجولا على إحدى ضفاف بحيرتها الكبيرة الكثيرة التعرجات، وعادا إلى روما والظلام يحتضن إيطاليا، ونسائم تشرين الأول الباردة تداعب السيارة المنطلقة بين الأشجار والورود الغافية، وأضواء القرى حيث الطرقات شبه خالية، ورائحة الخشب المحترق من أجل التدفئة، تدغدغ أحاسيسهما التي تفيض هياماً وانتظاراً.

رأى طارق في روما أيضاً، ولأول مرة، كارول في عملها، وهي تخضع للمسات الماكياج، قبل دخولها إلى الأستوديو، لتقدم برنامجها الأسبوعي الذي يبث إلى عدة أماكن في العالم.

وتابعها من غرفة التحكّم المجاورة للأستوديو، ويجلس فيها المخرج ومساعدوه، وهي تصبح في لحظة ملك المشاهدين، وتؤدي بالبساطة والحيوية نفسها التي تعيش بها في حياتها الخاصة، ورنين التلفونات وتواصل

الفاكسات لا ينقطع، وهي تتكلم مع المتصلين، وتقرأ فاكسات المشاهدين التي تتسلمها في لحظات الإعلان.

وكان طارق في قمة الإعجاب والتقدير لها، رغم تسلل بعض الأفكار إلى عقله، أثناء مشاهدته للبرنامج، عن طبيعة علاقتهما في المستقبل، وكيفية استمرارها في عملها الذي يلتهم وقتها ومجهودها.

انطلق طارق وكارول بعد البرنامج مباشرة، إلى نهر تحركاتهما المتدفقة بالقطار نحو بلدة "بيزا" في مقاطعة "توسكانا" البديعة، وشاهدا برجها الرخامي المائل، الذي يعتبر من أحد عجائب الدنيا السبع الباقية حتى اليوم.

ثم زارا مدينة "فيرنسي"الساحرة، التي اعتبر طارق محطة السكك الحديدية فيها تحفة فنية بحد ذاتها، ولم تنس كارول أن تقف معه فوق جسرها الشهير "بونتي ڤيكيو"، وأغمضا عيونهما وتمنى كل منهما أمنية، وقذفا بعملتين فضيتين في النهر. ولاحظ طارق أنها تقف صامتة على غير عادتها وهما يقفان على الجسر، وأبراج الكنائس والبيوت ذات القرميد الأحمر تحيط بهما.

ـ بماذا تفكرين؟

ـ لا أفكر، بل أشعر.

ـ بماذا؟

ـ كأنني لا أريد مغادرة "بونتي ڤيكيو".

ثم عرّجا على كنيسة "الدوومو" ذات الأبراج العالية والواجهة الرخامية، واستمتعا في ساحة قريبة منها بفرقة غجر تعزف بعض الألحان الشعبية.

ـ هل تعرف من صاحب هذا البيت العتيق؟

ـ لا.

ـ دانتي أليغيري.

ـ مؤلف "الكوميديا الإلهية"؟

ـ نعم.

وتجولا في سوق الذهب بعد الوقوف أمام منزل دانتي، واشترى طارق رمزاً ذهبياً من رموز "فيرنسي" لكارول، وعادا بعد ذلك إلى نقطة انطلاقهما الدائمة روما.

ـ هل نحن في متحف الشعوب؟

سأل طارق كارول وهما يتجولان في "متحف الفاتيكان"، ويشاهدان أقسامه المختلفة التي تضم بعض الآثار من كل القارات. ووقف طويلاً أمام إحدى المومياءات المصرية وعمرها خمسة آلاف سنة ونيف، وهي راقدة في سكونها الأبدي داخل صندوق من زجاج. وكان كلما أمعن النظر إليها أحسّ أنها في درجة من النوم أعمق من الإنسان الخاضع لتخدير كامل بألف مرة على الأقل، وأنها فقدت الصلة نهائياً بالحياة والأحياء والأرض برمتها.

لم يستطع طارق أن يخفض بصره عن سقف "كابيلاّ سيستينا" الذي رسمه الفنان المُلهم مايكل آنجلو ما بين الأعوام 1508 و1512 وفيه ثلاث وثلاثين لوحة يغلب عليها اللون الذهبي مستوحاة من الإنجيل بعهديه القديم والجديد. كما لم يتوقع رؤية مجسم كرة أرضية بطول الإنسان، من بين مجسمات الكرة الأرضية الموجودة في المكتبة، المصنوعة بدءاً من القرون الوسطى.

وشرحت كارول له همساً في القاعة الكبيرة التي يتم انتخاب البابا فيها، من بين الكرادلة الكاثوليك، الممثلين لبلدانهم الحاضرين أمام لوحة "المحاكمة الأخيرة"، ما تعنيه اللوحات الفنية المرسومة عن يسارها ويمينها، بدءاً من جدارية "معمودية المسيح" حتى "العشاء الأخير"، وهي الجداريات الست الموجودة عن يمين "المحاكمة الأخيرة ". و"رحلة موسى في مصر" إلى "أيام موسى الأخيرة"، عن يسارها، والتوقيع لستة فنانين إيطاليين في جملتهم مايكل آنجلو.

ذهب طارق وكارول بعد الوقوف المتأمل في "كابيلاّ سيستينا"، إلى محلة "زودياك" أعلى قمة في روما من بين القمم السبع التي تحيط بها، لتناول طعام الغداء، ومنها أطلاّ على المدينة التاريخية المملوءة بقباب وأبراج الكنائس، ثُم اتجها بعد الظهر إلى "ڤيلّلا بورغيزي"، التي

كانت تسكنها أسرة مهمة في روما، وطافا في ردهاتها وغرفها البالغة الاتساع، وتجولا بقدر ما استطاعا في حدائقها الفسيحة، وتوقفا لالتقاط الصور التذكارية تحت تماثيلها.

وأخذته كارول مساء في جولة بالسيارة ليشاهد "روما في الليل"، الغارقة تحت أمطار الإضاءة التي تهطل من عدد لا يُعد أو يُحصى من القناديل الكهربائية الأنيقة التصميم، والكشافات المركزّة بطريقة معينه على متاحفها ومحاكمها التي تشبه المتاحف في تصميمها الخارجي.

وأوقفت كارول سيارتها في أحد الأزقة العتيقة، وسارا في حارة ضيقة ليخرجا منها فجأة أمام ساحة مستطيلة على أحد جانبيها كنيسة، وعلى الجانب الآخر قصر "بامفيلج"، وفي وسط المكان نافورتا "فيومي و مورو".

ـ "بياتسا ناڤونا". قالت له كارول وكأن المكان يعرّف عن نفسه بنفسه بعد هذه الكلمة.

وبعد شرب العصير في أحد مقاهي الرصيف أمام قصر بامفيلج، وتأمل المكان والتمثال الذي يرفع يده في النافورة، وكأنه يخشى وقوع الكنيسة القديمة عليه، أدارت كارول سيارتها واتجهت بعد منتصف الليل إلى ما تبقى من سور روما القديم، الذي كان يحيط بها من أزمنة، ولاحظ طارق وجود بنات ليل كثيرات على تخوم العاصمة،

بلباسهن التقليدي الأسود، وشعورهن الشقراء التي تلمع تحت أضواء القناديل الخافتة.

ـ هل تستطيع أن تفسر لي ما تراه، بالنسبة للرجال؟ قالت له كارول.

ـ سلع معروضة ينتقي منها العابر ما يحلو له،أو السعر الذي يناسبه.

ـ وبالنسبة للنساء المنتظرات، بحسب خبرتك؟

ـ مجرد وظيفة يحتقرنها فعلاً. وظيفة.

نظرت كارول باتجاه طارق الجالس بجوارها بلمحة خاطفة، وابتسمت لمقدرته الغريبة على تلخيص ما يرى بمجرد عبارة صغيرة.

ـ على فكرة. بأي لغة أنت تفكر؟ سألته كارول.

ـ البرتغالية. وهو يبتسم ويتعجب من سؤالها.

ـ وتترجم إلى العربية ما تريد أن تقوله.

ـ هذا صحيح بنسبة كبيرة.

ومرة أخرى نظرت كارول إليه وهي تتأمل الرجل الذي سيصبح شريك حياتها، وتحاول أن تفهم الإنسان الواقع تحت تأثير حضارتين ولغتين مختلفتين، ولا ينفر من إحداهما أو يتعصب لأخرى. يتعامل معهما ويندمج فيهما وفي كل جديد يقابله، ليتعلم كما بدا لها.

ـ أمام هذه المسلة ترسل دولة مسيحية كل سنة، أكبر شجرة "سرو" لتُزين بأضواء وهدايا "الكريسماس".

قالت كارول له في صباح آخر يوم في رحلته، وهما يقفان في ساحة القديسين بطرس وبولس، أمام أكبر كنيسة في العالم، "سان بيدرو" المجاورة لقصر البابا الڤاتيكاني، والحمام البري يهبط ويطير فوق رأسيهما ورؤوس الزوار الذين حولهما.

ـ .....

ـ ومن هذه الشرفة يُلقي البابا كلمته لجموع المصلين صباح كل أحد بعد القداس.

دخل طارق وكارول كنيسة "سان بيدرو" مع النهر البشري الزائر على مدار ساعات النهار، الصرح البالغ مائة وسبعة وثمانين متراً طولاً، بينما يبلغ طول الكنيسة الرئيسية من داخله ستة وسبعون متراً، ويوجد على جوانبها إحدى عشرة كنيسة صغيرة، وخمسة وأربعون عملاً فنياً يعتبرون ثروة فنية لا تُقدر بمال، صنعها فنانون كثيرون على امتداد عمر الكنيسة، وتضم المنحوتات والأعمال الأساسية التي أنجزها العبقري مايكل آنجلو.

توقف طارق بمجرد أن دخل الكنيسة الرئيسية، ليلقي نظرة شاملة بعد أن جمّده إحساس أولي يوحي له بأنه في أكبر متحف للرسومات والجداريات والمنحوتات وليس في كنيسة. وربما ساعده على هذا الانطباع، عدم وجود مقاعد طوال الأسبوع فيها، ماعدا أيام الآحاد والمناسبات.

ـ إنها تحتاج لعشرة أيام لرؤية ما فيها. همس طارق لكارول.

ـ وأكثر إذا لم يكن معك دليل أو كتاب.

بدأت جولتهما من على يمين الكنيسة الرئيسية، حيث يوجد تمثال "الرحمة" الذي أنجزه مايكل آنجلو وعمره خمسة وعشرين عاماً فقط، مروراً بالكنائس الصغيرة والنُصب التذكارية التي أراد أصحابها تخليد ذكرى من يحبون، مثل نُصب ماريا سوبيسكي زوجة فيليبّو باريجيوّني، أو باباوات سابقين مثل ألكسندر السابع وليّو السادس.

وبعد رؤية سريعة لما هو موجود على جوانب الكنيسة، اتجها من آخرها إلى وسطها لمشاهدة القباب الزجاجية من أسفلها، ووصلا إلى الهيكل الرئيسي ذي الأعمدة الأربعة النحاسية بطول عشرين متراً، وتحته ضريح أول بابا، القديس بطرس الرسول الذي استشهد في المكان نفسه.

ـ بدأ العمل في الكنيسة القديمة سنة 324 للميلاد. قالت له كارول.

ـ هل هي ما نراه الآن؟

ـ لا. أصبحت غير آمنة في القرن السادس عشر، وبُني مكانها ما تراه اليوم في خلال قرنين، وانتهى العمل

الأساسي فيها سنة 1626، وأضيف إليه بعض التماثيل والأعمال الفنية، التي لم تزل تُضاف أو تجدد حتى اليوم.

صعد طارق وكارول إلى الشرفة الدائرية الموجودة تحت القبة الرئيسية وفوق الهيكل الكبير، ليشاهدا الهيكل الرئيسي من عل. ثم نزلا تحت الكنيسة وزارا قبور الباباوات السابقين، ووقفا متشابكي الأصابع أمام ضريح الرسول بطرس، متأملين الصندوق الذهبي الذي يضم رفاته.

واستقلا المصعد بعد ذلك، ليصلا إلى سطح الكنيسة وفيه محلات لبيع التذكارات، ثم صعدا الدرج الطويل الضيق الموجود حول القبة من داخلها، للوصول إلى الشرفة الدائرية الخارجية للقبة نفسها، حيث المشهد العام للمنطقة والفاتيكان وروما، والهواء البارد بسبب ارتفاع القبة الشاهق، الذي تظهر منه السيارات في الشوارع بحجم علب الكبريت.

وختما زيارتهما بالعودة إلى الساحة الموجودة أمام الكنيسة، وجلسا يستريحان على الدرج الصغير الدائري المحيط بها، وفوقه ثلاثمائة وخمسة وستون عاموداً هي عدد أيام السنة، يحملون سطحاً عليه تماثيل أبطال روما، وواجهة "سان بيدرو" أمامهما وفوق سطحها تماثيل الرسل وفي وسطهم يقف المُعلّم، والساعتان الموجودتان

عن يمين ويسار مؤسسي وناشري العقيدة المسيحية، وتُظهران التوقيت في شرقي الكوكب وغربه.

ـ هل تعتبر هذه الزيارة حجاً؟ سألها طارق وهو ينظر إلى أفواج الناس.

ـ لا أعلم. أعتقد أن الحج للقدس فقط. على أية حال المكان مكان مقدس.

ـ هل تمنيت شيئاً ونحن في الكنيسة؟

ـ لا. ولم أتمن ولا مرة من قبل. تجعلني عظمة المكان، لا أفكر في شيء سوى ما أراه. وأنت؟

ـ الجواب نفسه.

عاد طارق وكارول إلى السيارة الواقفة على مسافة كبيرة من " سان بيدرو"، وتحركت كارول باتجاهها مرة أخرى، ليلقي طارق نظرة أخيرة عليها قبل سفره في الليلة نفسها، وانساب بصره على الواجهة والقبة الكبيرة والأعمدة والساحة وفيها النافورة والمسلة الشاهقة والحمام البري، وكأنه يراها لأول مرة.

ثم انعطفت السيارة يساراً، لتسلك الطريق المؤدي إلى الربوة المتاخمة للفاتيكان وفوقها مستشفى "أطفال يسوع"، وتعبر الجسر الرخامي فوق نهر تيفيري، المطل على قلعة "سان آنجلو".

والتفت طارق إلى الكنيسة وهي تختفي وراء الأبنية

التاريخية، وتنهد تنهيدة مثل التي يطلقها معظم الزوار، وتتسبب مع عوامل الطقس في تجديد وترميم واجهة "سان بيدرو" كل ثلاثين سنة.

٦

لم تغب كارول عن ذهن طارق لحظة واحدة، أثناء رحلة عودته إلى بيروت. اتجه تفكيره إلى كل ما رآه معها، وكان يقف متأملاً الصور والأصوات والألوان والروائح والأحاديث، ويستعيد ما يشاء منها، خصوصاً موعد زواجهما الذي حدداه في شباط 1997، بعد اتفاقهما على عدة أمور وصلا إليها بعد حوارات كثيرة.

اتفق الخطيبان على أن تستمر كارول في عملها في روما خلال السنة الأولى من زواجهما، وتقنع المسؤولين في عملها، بضرورة انتقالها إلي بيروت نسبة إلى ظروفها العائلية التي استجدت. وتقوم بالحضور إلى لبنان كل ثلاثة أسابيع لمدة خمسة أيام، حتى لا ينقطع تواصلها مع المشاهدين، ولا تحسس الإدارة بأي تقصير منها تجاه عملها.

كما اتفقا على عدم الإنجاب خلال هذه السنة، حتى

تستقر أوضاعها الوظيفية تماماً وتعود إلى بيتها بشكل نهائي.

وقد وافقت إدارة عملها في روما على طلبها، نظراً إلى ظروف زوجين في بداية حياتهما معاً ووجود الزوجة بعيداً عن زوجها، وتمت بعض التعديلات الروتينية، ومنها تجميع أيام أجازتها لتأخذها كل ثلاثة أسابيع وليس أسبوعياً. ووافقت كارول على تحمّل ثمن تذكرة الطائرة ست مرات في السنة، والمرات التي تساويها عدداً تدفعها المؤسسة. وأخبرت طارق هاتفياً بما توصلت إليه، ووافق على ما تم.

ـ هل أنت مقتنع بذلك؟

سأل مجيد ابنه بعدما فاتحه طارق بموعد زواجهما، وما اتفق عليه مع خطيبته.

ـ تُملّي ظروف عمل الشباب هذه الأيام، مواقف أصعب عليهم أحياناً..

ـ مثل ماذا؟

ـ يسافر بعض الرجال للعمل إلى الخارج، ولا يعودون إلاّ كل عام.

ـ لكنهم رجال.

ـ أنا أثق في كارول. وحتى بالنسبة للرجال المسافرين، هناك امرأة تعيش وحدها.

ـ أنا لا أحب التدخل في شؤونك الخاصة، ولو انها بالنسبة لك أنت تحديداً هي شؤون عائلتنا.

ـ وما هو رأيك؟

ـ موافق وأبارك زواجكما، لكن تذكّر، ستحدث مشاكل لا حلول لها بعد ذلك.

ـ بابا.. ستحاول كارول إقناع إدارتها بالعودة إلى بيروت، وربما تفلح في أقل من سنة.

ـ هل تعتقد ذلك؟

ـ أكيد.

ـ طارق: هل أنت بحاجة إلى نقود كارول؟

ـ الأمر بعيد عن نقودها تماماً. ليس من الحكمة أن تدمّر كل ما بنته، من أجل التضحية بسنة.

وافق مجيد على ما حاول ابنه إقناعه به، على مضض وشعور لا يفارقه بالخوف على مستقبل المؤسسة التي بناها، لأنه رأى في حياته مؤسسات تفنى بسبب مشاكل أصحابها الخاصة أو إدمان القمار أو معاقرة الخمر.

أما والدة طارق فقد نصحته بتركهما يتدبران أمرهما بأنفسهما، لأنهما هما الوحيدان القادران على قراءة مشاعرهما، وقدرتهما على التضحية، التي يراها هو كبيرة وغير مبررة.

ـ هل نسيت أنك تركت "ساو لويس" بعد اقتناعك

بفكرة، لم يقتنع بها سواك؟ قالت لوس له وهو يناقشها في ما سمع من ابنه.

ـ لكننا تزوجنا ولم أتركك. ولم يعش كل منّا في قارة مختلفة بعد ارتباطنا.

ـ ظروفهما مؤقتة على أية حال. ولن يحدث شيء للمؤسسة. سيحافظ طارق عليها.. لا تخف.

"ساو لويس"؟

حكاية حب، وصدفة ظلت كوشم في النفس، ومغامرة لا ينساها مجيد، حتى لو لم يتزوج لوس. وهو دائم التذكّر والحنين لها. ولا يعلم لماذا تشبه الميدان الرئيسي في الطرق الكبيرة في حياته. كل الشوارع تتجه إليه، وتنطلق منه.

يعرِّف أهلها عنها بقولهم: "جزيرة الحب"، رغم إنها عاصمة ولاية "مارانهاو" في الجزء الاستوائي الشمالي الشرقي من البرازيل، الموجودة في شبه جزيرة تطل على المحيط الأطلنطي، وتحمل الاسم نفسه.

أسسها الفرنسيون واكتسبت اسمها من الملك لويس الثالث عشر، ورغم ذلك تبدو الثقافة البرتغالية واضحة في تفاصيل حياتها ولسانها، واللمسة الخارجية على بيوتها التي يعود طرازها إلى القرنين الثامن والتاسع عشر.

كل هذه الأمور لا يبدو انها تجعل التاريخ مهماً في

"ساولويس"، أو تجعله كل شيء في حياة الناس. فسحر جمال الشواطئ والمحيط الذي يعانقها، وتشكيلات الغيوم فوق أفقها البعيد، واللون الأخضر الذي يكسوها بدءاً من رمال الأطلنطي الأزرق، وبساطة أهلها وبعدهم عن جرثومة الضغوط اليومية في المدن الحديثة، هي الأصل والحياة فيها.

يعيش زوارها وأهلها في "ساولويس" نفسها، وينسون ملامحها الألمانية والفرنسية والبرتغالية. ويقابل سكانها الغريب بتحيتهم «Bem Vindo»، الذي سرعان ما ينتشي بكل ما حوله وجمال سكانها. كما يذوب عشاقها بكرنفالها السنوي في آذار، ويعودون إلى الإنسان البدائي الموجود تحت بشرة المتمدين الخارجية.

ظن مجيد انها ستكون المكان النهائي في حياته، لكن قدره أبعده عنها، فتمسّك بغصن منها هو لوس زوجته وحبه العظيم.

ولم يزل في سنّه المتقدمة هذه يجد نفسه أحياناً في شارع سوقها الرئيسي «Rua da Paz». وطالما اتجه وجدانه إلى «Rua do Giz» حيث كان المحل الذي تملكه ماريسيلّا أم لوس، وتعلّم منه ومن أصحابه مرة أخرى معاني الانتماء والاهتمام والسؤال عن الآخر، ولم ينسها تحت أي ظرف. ولا يملك قلبه سوى أن يبتسم ابتسامة

واسعة لذكرى «Ponta D'areia" ورائحة ذكراها التي لا توصف.

طلب مجيد منذ سنوات من المهندس المعماري لڤيلّته في الرابية، أن يصممها على أساس أن تكون طابقين في المستقبل، ويمكن للطابق العلوي أن يكون بمدخلين أحدهما لعيادة ابنه روبير والآخر لسكنه، لأنه قرر أن يعيش طارق في الطابق الأول عندما يتزوج.

وكان ابناه يعلمان هذه التفاصيل، التي كانت في ذهن طارق وهو يتفق، بكل ثقة، مع كارول على زواجهما بعد بضعة شهور أثناء وجوده في إيطاليا.

غادرت كارول روما في إجازة لمدة ثلاثة أسابيع للزواج، في آخر كانون الثاني سنة 1997، لأن موعد الزواج كان في السابع من شباط. وتمت مراسم العرس في كنيسة "الصعود" في بلدة الضبية، في حضور عائلي حاشد مع الأصدقاء والعاملين في الأعلام وأهل الفن والأدب.

وقد لاحظ مجيد أثناء تقبله التهاني، وهو يقف بجوار العروسين، أن المدعوين الذين يخصّونه هم أصحاب المال والنفوذ، بينما أتى كل المشهورين من أجل كارول. وأدهشه حضور نائبين لبنانيين، وكتُاب قصة وشعر، وثلاث ممثلات من القاهرة، ومطربة كبيرة من لبنان، والفنانة

الاستعراضية داني بسترس. إضافة إلى عدد كبير من الإعلاميين.

ـ أنا أحب ولديّ لدرجة انني لا أعرف كيف سيأخذونني من المنزل بعد وفاتي.

قال مجيد لكارول أثناء الحفل بعد مراسم الزواج.

ـ أطال الله في عمرك.. لماذا تقول ذلك؟ سألته كارول.

ـ وأحب الذين يحبون روبير وطارق جداً. وأنت أصبحت واحداً منّا، وليس فقط إنساناً يحب.

ـ هذا إحساسي أيضاً.

ـ وأرجو أن تدوم المحبة ولا ننسى هذه اللحظات الحنونة.

ارتفعت عقيرة المليونير البرازيلي روبرتو وابنه الأكبر، اللذين أتيا إلى لبنان للاشتراك في عرس ابن مجيد، بالغناء فجأة. غناء بصوتين لا يصلحان أساساً سوى للحديث العادي، وبلغة (برتغالية) لا يفهمها معظم الحاضرين، لكنه يعبّر بلحنه وحماسته عن الفرح، وسرعان ما شاركهما مجيد وزوجته وحماته، في هذه الأغنية، التي جعلت الصمت يخيّم على القاعة، ثم الزلاغيط والتصفيق من بعده.

ـ على فكرة.. هي أقل جمالاً من صورتها في

المجلات والتلفزيون. قال طارق لكارول، بعدما عرّفته على داني بسترس.

ـ وفنّها أكبر من شخصيتها.

ـ وأنا مندهش من حضور ثلاث ممثلات من القاهرة لعرسك.

ـ تصادف وجود اثنتين منهما في بيروت الآن، والثالثة صديقة شخصية.

أحس مجيد وهو بين هذه الأسماء والوجوه، بقوة زوجة ابنه الاجتماعية، هو الرجل الذي تخرج في الفنادق الكبيرة، ويعلم يقينا أهمية الصداقات في تغيير مصائر البشر. ونسى وهو في قمة سعادته التي استولت على قلبه، جميع التساؤلات التي أرهقته أخيرا بسبب ظروف زواج طارق.

ـ لاحظت في بطاقة الدعوة أن اسم عائلتك " أبو نصر ". قال لها محمد دياب بعد أن هنأهما وتمنى على طارق أن يتذكر دائماً أنه ـ محمد ـ السبب في هذا الزواج.

ـ نعم، وما الغريب في ذلك؟ سألته كارول.

ـ إذاً اسم الشهرة "أبو النصر".

ـ أبداً. أخطأ الموظف الذي يكتب "تيتر" البرنامج في كتابة اسم عائلتي أول مرة ظهرت فيها تلفزيونياً. واستمر هذا الخطأ ولم أعترض عليه.

ـ لابد إنه كان متأثراً بالانتصارات العربية في القرن العشرين.

ـ لماذا؟ سألته كارول وهي تضحك من تعليقه.

وتلقف طارق الموقف وتصرف كالممثل المسرحي الذي يحث غيره على الخروج عن النص، لأن طبيعة الموقف تقتضي ذلك.

ـ كان اسم عائلتك سيكون مضحكاً لو كان "معركة". قال طارق.

ـ لماذا؟ وهي غارقة في الضحك، وتنظر إلى زوجها ومحمد حسين دياب وتتأمل نظرة التفاهم المتبادلة بينهما، وعقلها لا يستوعب ما سيقوله أحدهما بلسانه الساخر.

ـ لأنه كان سيخطأ ويسميك "أم المعارك(*)". قال محمد دياب وهو ينظر إلى طارق بكل هدوء، ثم يعود ويوجّه نظره إلى كارول، التي كادت أنفاسها أن تنقطع من الضحك، وهو يهز رأسه.

أمضى العريسان أسبوعاً في ليماسول في قبرص، وهما غائبان عن كل ما حولهما، ماعدا أشواقهما التي

(*) "أم المعارك" اسم أطلقه الرئيس العراقي صدّام حسين على معركته ضد التحالف العربي والعالمي ضده، لإخراجه بالقوة العسكرية من دولة الكويت التي احتلها في بداية تسعينات القرن العشرين. وقد خسر "أم المعارك" وغادر دولة الكويت.

انفجرت كينبوع ماء بينهما، ويكتشفان يوماً بعد يوم انسجاماً جسدياً بينهما لم يتوقعا حدوثه في هكذا فترة قصيرة.

ـ هل أنت مرهقة؟ سألها ذات صباح وهما يتمشيان في سوق ليماسول.

ـ فترة ما قبل الزواج كانت متعبة في العمل، بالإضافة إلى توتري بسبب حياتي الجديدة.

ـ سألتك لأنك تنامين بعمق شديد، لدرجة انني تمشيت صباحاً حول بركة السباحة في الفندق وعدت، وأنت نائمة.

ـ يبدو لي أنك بدأت التفكير.

ـ إلى حد ما.

ـ في عودتي إلى روما بعد أيام؟

ـ نعم.

ـ هل نسيت اتفاقنا؟ إنها فترة أتمنى ألاّ تطول.

عادت كارول إلى عملها بعد الأيام القليلة في بيروت التي تلقيّا التهاني فيها إثر عودتهما من الجزيرة المتوسطية. كما عاد طارق إلى عمله. وقد أحسّ كلاهما بثقل مرور الوقت عليهما في الأيام المباشرة التي تلت سفرها، لكن ظروف عملهما أجبرتهما على التأقلم مع الحياة التي اختاراها بملء إرادتهما.

ورغم إحساس طارق بمجرد خروجه من الكنيسة بعد مراسم الزواج، انه إنسان غير الذي دخلها، إلاّ أنه شعر في داخله بعودته مرة أخرى إلى الإحساس نفسه بالجلوس على مائدة أمه التي تعدها، والاتصال بأصدقاء عمره زملاء مدرسته الابتدائية، والخروج معهم في أمسياتهم للتسلية.

ـ لماذا تضع خاتم الزواج وأنت معنا؟ حاول أن تكون عازباً. سأله أحدهم ذات مساء.

ـ حتى لو لم أضعه، كارول معي دائماً.

ـ تغيير شامل.

رجعت كارول إلى حياتها المنفردة في روما، لا يؤنس وحدتها سوى اتصاله ليلاً بها كل بضعة أيام. وأخفت عنه مماطلة الإدارة في الرد على طلبها بالعمل في بيروت، لأنها كانت تغطي إعلامياً بعض الأمور الفنية والثقافية والمهرجانات المهمة، التي تحدث في إيطاليا وأوروبا. وكانوا يعتبرونها الأنسب لإجادتها ثلاث لغات، ومن أجل العلاقات التي أسستها مع إدارات المهرجانات تحديداً. بينما راهنت هي على عنصر الوقت لإقناعهم.

كانت وتيرة حياتهما تتغير تماماً بمجرد حضورها إلى بيروت، وكانا ينتظران هذه الأيام ويسعدان بها، ويطفئان فيها التهاب أعصابهما الشابة المتأججة أثناء فترة الغياب.

واكتشفت كارول بالممارسة، أنها امرأة تعرف كيف

تبوح بما تشعر به، وعرفت فيه رجلاً يغرق في لحظة اللذة، وتُلهب مشاعره الكلمة التي تقال أثناءها.

ـ هل تعلم أن شهر عسلنا سيكون بطول هذه السنة؟ قالت له ذات ليلة.

ـ لأن بُعدك يجدد اشتياق اللقاء؟ قال متسائلا.

ـ والأمر نفسه عندي.

ـ ماذا كنت تسمعين من صديقاتك عن شهر العسل؟

ـ تهدأ الأمور بعده. وبعضهن قلن إن الحب يموت، أو إن وهج اللقاء يماثل عمر زهور العرس.

ـ بالمناسبة.. هل تُثار المرأة من ملامح الرجل وتكوينه؟

ـ ألم تسأل من عرفتهن قبلي؟

ـ ولا مرة.

ـ لماذا؟

ـ كان لقاء منافع مشتركة.

ـ غريبة كلمة "منافع مشتركة" هذه.

ـ وما زال سؤالي بدون جواب.

ـ لا تثار المرأة مثلكم من التكوين الخارجي في البداية. يلفت نظرها فقط.

ـ وبعد ذلك.

ـ تثيرها أمور كثيرة مثل النظرة والكلمة وتجربة اللذة

نفسها وانسجامها مع شريكها. الانسجام مهم جداً.

ـ فهمت الآن فقط سبب وجود العشاق حتى في حياة بنات الليل.

ذهبت كارول إلى طبيب أمراض نسائية في روما في شهر آب، لتستشيره في أمر شغل بالها. وبعد إجراء الفحوصات الأولية المطلوبة، هنأها بمولود بعد ثمانية أشهر.

ـ مولود؟ سألته وعلى وجهها علامات التعجب.

ـ نعم. قلت لي إنك متزوجة. ما الأمر الغريب في ذلك؟

ـ إنني أتناول حبوب منع الحمل.

ـ يحدث الحمل أحياناً رغم تناولها.. حالات نادرة.

ـ واختارتني الحالات النادرة تلك؟

ـ كيف كنت تستعملينها؟

ـ قبل اللقاء الزوجي.

ـ فقط؟

ـ نعم.

ـ الغريب هو انكما لم تستشيرا طبيباً، رغم أنكما متعلمان.

ـ ورغم أن أخاه طبيب.

ـ على أية حال، الأمر طبيعي جداً لزوجين. مبروك.

أخبرت كارول زوجها في الليلة نفسها ما قاله الطبيب لها، ولاحظت فرحته بمجرد سماع الخبر، ثم أخبرته تفسير الطبيب عندما أبدى تساؤله عن كيفية حدوث الحمل.

ـ مبروك. ربما يكون ذلك حافز الإدارة في التعجيل بنقلك إلى هنا.

ـ هل تظن ذلك؟

ـ أكيد.

ـ أنا متوترة.

ـ لماذا؟

ـ لا أعرف.

ـ يبدو أن خبر الحمل هو السبب. حتى أنا بدأت التوتر بعد أن استوعبت الخبر المفاجئ.

ـ بعض الأمور السعيدة تحمل معها الإحساس بالمسؤولية أيضاً.

ـ صحيح.

انتشرت مظاهر وكلمات الفرح بين أفراد عائلة طارق بعد أن أبلغهم الخبر السعيد، وسألته أمه عن الاسم الذي يفكر فيه بعد معرفة جنس المولود. ولم يعلق أبوه بكلمة سوى عبارة التهنئة التقليدية، التي قالها بسعادة حقيقية.

أخبرته كارول في أول إجازة لها بعد بدء الحمل،

التفاصيل التي لا تُقال على الهاتف، وطمأنته بأنها تحت المراقبة الطبية، لأنها تعمل بتصريح عمل في إيطاليا، ويحق لها ما يتمتع به المواطن الإيطالي. وأن أول زيارة لها من زياراتها الشهرية للطبيب، ستكون بعد يومين من رجوعها.

وسألها أخوه روبير إذا كانت بحاجة لمراجعة طبيب لبناني، وشكرته وأخبرته انها ستكتفي في الوقت الحالي بمتابعة الطبيب الإيطالي، حتى لا ترتبك بين تعليمات الطبيبين.

ـ ولماذا أذهب إلى طبيب وأنت معنا في المنزل؟ سألته وهي تمازحه.

ـ تخصصي بعيد جداً عن الأمور النسائية.

ـ حتى ولو سؤال استشاري؟

ـ صحيح أننا درسنا الجسم الإنساني، وتعلمت أثناء فترة التلمذة في كل الأقسام الطبية لفترة محددة، لكن أفضّل دائماً المساعدة ولو بسؤال في تخصصي.

ـ هل سافرت إلى الخارج أثناء تخصصك؟

ـ منحة إلى نيويورك لمدة عشرة أشهر.

ضحك الطبيب لوتشيانو وهو يجري أول تصوير صوتي لكارول، في بداية الشهر الثاني لحملها. وسألته عما يضحكه، وهل الجنين فتى أم فتاة.

ـ معرفة جنس الجنين ممكنة بعد الشهر الخامس.
ـ ولماذا تضحك؟
ـ لأن بعض النساء لهن حظ مضاعف..
ـ ماذا تعني؟
ـ أنت حامل بتوأم.
ـ توأم؟ سألته وقد انتقلت الضحكة إليها.
ـ ما يعني توفير وقت وتعب إذا كان في نيتك أن يكون لديك طفلان.
ـ مفاجأة ثانية.
ـ وعلى استعداد لتبني أحدهما لو كانا ولدين.. عندي بنتان.
ـ لكن هل زوجتك عندها الاستعداد نفسه؟
ـ سأحاول إقناعها.
ـ هل أنت دائماً بهذه الروح المرحة؟
ـ يتعامل كل الأطباء مع الموت والمرض، أما نحن فنتعامل مع الحياة والصحة.
ـ وهي أمور تستحق ابتسامة.

نقل طارق الخبر السعيد الثاني إلى عائلته، التي بدأ أفرادها بالتعليقات الضاحكة، والعبارات المتفائلة، كلما اجتمع معهم على العشاء أو عند رؤيتهم منفردين.

ـ استعد منذ الآن للنوم المتقطع.

ـ لماذا لا ينام عندكم في قسم الصيانة؟

ـ سيكون لك دوام عمل آخر ما بين الصيدليات ومحلات بيع ملابس الأطفال مساء.

ـ يجب أن نزيد معاش المسكين. أليس كذلك يا لوس؟

ـ من الممكن أن تطلبا مساعدات من الحكومة الإيطالية.

ـ لا يمكن، لأن الحدث لم يقع على أراضيها.

ـ ولا طلب الجنسية؟

ـ ألا يكفيكم البرازيلية؟

استمرت كارول في عملها كالمعتاد، كما واظبت على زيارتها كل ثلاثة أسابيع إلى بيروت، بين تساؤل الجميع عن سر طاقتها وحيويتها. واضطرت إدارة الشبكة التلفزيونية التي تعمل فيها، إلى تكليف غيرها لتغطية النشاطات الثقافية والفنية والسينمائية في إيطاليا وأوروبا، واقتصر عملها على إعداد وتقديم برنامجها الأسبوعي، الذي اضطر مخرجه لإعطاء تعليمات محددة للمصورين بتخفيف عدد اللقطات التي تظهر فيها كاملة، والاقتصار على ما يُسمى بلغة التلفزيون " close up" وهي اللقطة المُقرّبة التي تصوّر الإنسان من نصفه الأعلى، أو وجهه فقط.

ـ عندي بعض الأمور المهمة لأقولها لك. قال لها

الطبيب في نهاية شهرها الخامس من الحمل.

ـ وما هي؟

ـ لا يمكنك الاستمرار على الوتيرة التي تعملين بها.

ـ لماذا؟

ـ سيشكل ذلك خطراً عليك وعلى الصبيين.

ـ ما هي الأسباب؟

ـ لا تسمح نحافة جسمك وطولك والحمل بتوأم بهذا المجهود. يجب أن ترتاحي حتى يحين موعد الولادة.

ـ ما يعني أنني يجب أن أعود إلى بيروت.

ـ أفضّل ذلك. وسأكتب تقريراً لزميلي هناك بحالتك.

ـ هل هي خطيرة؟

ـ لم أقل ذلك. لا عمل ولا سفر متواصل ، هذا كل ما في الأمر.

ـ أحتاج إلى تقرير لعملي هنا أيضاً.

ـ أكيد.

ـ هل تظن أنهم سيوافقون؟

ـ أكيد.. ولن يدفعوا لك أجر ثلاثة شهور لأنها ليست من حقك، لكن قد يبرر تقريري دفعها. على فكرة، زوج أختي صاحب شركة شحن. أعلميني إذا أردت نقل أغراض إلى بيروت، وسيقوم بعمل كل اللازم وأنت في منزلك.

أعلنت كارول وهي ترتجف من الانفعال، لمشاهديها

في آخر حلقة ظهرت فيها "على الهواء"، أن زميلة أخرى ستتولى تقديم البرنامج أثناء فترة غيابها لأسباب أصبحت واضحة لهم، وأنهم سيظلون في قلبها طوال هذه الفترة. وتوالت الفاكسات التي تتمنى لها السلامة لمدة أيام بعد هذه الحلقة.

كما باعت سيارتها الخاصة، وشحنت أغراضها العزيزة على قلبها، وهي في شبه ذهول من سرعة الأحداث، والشقة التي تخلو يوماً بعد يوم مما فيها، وتذهب حاجياتها هدايا إلى زملاء العمل.

كانت تتحرك بدافع الأمومة والواجب تجاه التوأمين اللذين في أحشائها، وكأنها تسير في حلم مباغت، لم تعرف فيه لماذا كان شعور خوفها على مستقبلها المهني يؤرقها.

جلست كارول في كنيسة شفيعتها القديسة ريتا، في قرية "كاشّا"، الجبلية الصغيرة، قبل سفرها بيومين وهواء كانون الأول القارص يسيطر على المكان ذي الإضاءة الخافتة، الذي كان يستعد لذكرى حلول أعياد الميلاد، والعدد المحدود من الزوار نسبة إلى برودة فصل الخريف في مرتفعات إيطاليا، ومصادفة زيارتها في يوم في وسط الأسبوع، وهي ساكنة تتأمل اللحظة التي هي فيها، وتعود إلى ما قبلها في شريط ذكرياتها منذ وصولها إلى إيطاليا.

لم تتل أي صلاة سوى "الربّانية" تحية للمكان المقدس عند دخولها، ومكثت دقائق زيارتها جالسة في مناجاة داخلية، مع قديستها المفضلة المسجاة داخل صندوقها الزجاجي في سكونها الأبدي، عن يسار الكنيسة. وأنارت شمعة قبل أن تغادر مع صديقة أوصلتها بسيارتها، وابتعدت عنها بعد دخولهما المزار، لإحساسها بأن كارول تريد أن تظل منفردة.

ـ اتكلتُ على الله وعليك يا قديسة الأمور المستعصية.

قالت كارول وهي تلقي بنظرة وداعية على القديسة ريتّا، وتعود إلى منزل صديقتها، وهي صامتة معظم الوقت في الطريق الجبلية الوادعة، التي اكتست قمم جبالها باللون الأبيض، ولا تستطيع مقاومة إحساسها بالقلق، وأسفها على مغادرة إيطاليا العزيزة على قلبها.

لازمت كارول منزلها بعد عودتها إلى بيروت، ولم تكن تخرج سوى للضرورة. ورغم سيطرة إحساس الجمود عليها، إلاّ أنها كانت تخصص قسطاً من وقتها لإعداد برنامجها، وإرساله إلى زميلتها التي تولت تقديمه، بالبريد الإلكتروني عبر مواقع الرسائل العربية. كما كانتا تتناقشان دائماً في مواضيع حلقات قادمة، عبر "غرف المناقشة" الموجودة على الإنترنت، وتتكلمان عن الحلقة التي مضت .

وتمنى أحد المشاهدين ذات مرة التحدث مع كارول، فأمر المخرج موظف غرفة الاتصالات أن يطلبوها هاتفياً في منزلها في بيروت، ودار حوار إنساني ممتع ما بين المشاهد وكارول وزميلتها الموجودة في الأستوديو في روما، طلب المشاهد في نهايته من الله أن تعود إلى جمهورها بالسلامة بعد الوضع.

كانت لمسة رقيقة أسعدت قلبها كثيراً، وبددت لفترة من الوقت بعض مخاوفها على مستقبلها المهني في المؤسسة التي تعمل فيها.

أحسّت كارول بعد دخولها شهرها السابع، أن طبيبها الإيطالي كان محقاً، وأنها أصبحت أبطأ حركة وأقل عزيمة من ذي قبل.

ـ أشعر بخوفك وتوترك أحياناً، خصوصاً في اليوم الذي يعرض فيه برنامجك. قال لها طارق ذات مساء.

ـ مهما كانت عظمة لاعب الكرة، لا يمكن أن تتوقف المباراة بسبب إصابته. يتضايق الجمهور أثناء معالجته فيما لو طالت، ويجب أن يخرج.

ـ لكنه يعود بعد العلاج.

ـ وماذا يحدث لو برع غيره في مكانه، أثناء فترة علاجه الطويلة؟

ـ تتسع الملاعب وأندية أخرى لكثيرين، منهم هو شخصياً.

ـ هل ترى ذلك؟

ـ اسمك وشهرتك ما زالا موجودين بين الناس.

ـ أنا خائفة.

ـ لا يمكن أن تتوقف الحياة عند ناد، أو محطة تلفزيونية واحدة.

كانت كارول بالنسبة لأهل طارق تشبه زائرة بينهم، أثناء شهور زواجها الأولى، وكان ذلك هو إحساسها نفسه. وغيّرت إقامتها الدائمة بينهم هذا الشعور عند جميع الأطراف، الذين بدأوا يعتبرونها حقاً من أفراد العائلة، وبدأت هي تختبر حياتهم اليومية بكل تفاصيلها.

لمست أساليب محبة حماتها لها، رغم مودتها الصافية منذ أول لحظة رأتها فيها. وأحس مجيد من جهة أخرى بالحنان نحوها والاستئناس بها، لأنه استطاع أن يفهمها كما هي، وليست كنجمة أو زائرة. كما أصبحت بالنسبة للجدة ماريسيلّا الابنة المدللة التي لا تتناول طعامها، إلا إذا كانت بجوارها تماماً على المائدة. وتعمّد الجميع عدم التحدث باللغة البرتغالية أثناء وجودها، رغم أنها طلبت منهم مراراً أن يتحدثوا بها لتتعلمها.

قال لها أخوه روبير ذات صباح دافئ في شتاء بيروت:

ـ يبدأ عملي اليوم من التاسعة مساء حتى السادسة من صباح الغد.

ـ وماذا تنوي أن تفعل؟

ـ ما رأيك في الذهاب إلى كازينو على البحر مباشرة في السعديات؟

ـ مشوار حلو.

أخبرته أثناء قيادته إلى السعديات أنها مرتاحة إلى الطبيب الذي اختاره لها للإشراف على حملها وولادتها، وأحسّت لأول مرة وهما يتبادلان الحديث على انفراد أن حياده معها يعود إلى استغراقه الشديد في عمله، لدرجة أنه قليل الكلام في المنزل بشكل عام، ولا تشعر هي بوجوده أحياناً سوى عند رؤيته.

كما استشفت من حديثه امتنانه العميق لوالده، وتقديره له وتعجبه كطبيب من جلده على العمل كرجل خمسيني وليس سبعينياً.

ـ انتبهي.. إنه ليس متكالباً على الدنيا.

قال لها عن أبيه وهما يجلسان خلف زجاج الكازينو المطلّ على البحر مباشرة في السعديات.

ـ صحيح.. ولا مرة شعرت بذلك. يبدو لي أنه مستمر في عمله لأن لديه الطاقة.

ـ وسيقرر بدون تردد أن يقود طارق المؤسسة إذا أحس أنه بدأ يفقدها.

ـ أعتقد أن العاملين يحبونه.

ـ أكثر من طارق..

ـ ربما لأنه صاحب القرار، والناس يحبون مصلحتهم.

ـ صحيح.. وهو محبوب أكثر لأنه لا يترك أي موظف وحيداً في أزمته. يساعد بسخاء وينصت لصاحب المشكلة.

ـ لكن... ماذا عنك أنت؟

ـ بالنسبة لأي أمر في حياتي؟

ـ حياتك نفسها. هل لديك إنسانة تحبها؟

ـ أنا على ما يرام مهنياً، وليس لدّي من أحبه حالياً سوى عملي.

ـ هل تفكر في الزواج؟

ـ سأتزوج عندما أجد نصفي الآخر كما تقول الأسطورة.

ـ لكنني لا أرى لديك الوقت للبحث عن نصفك الآخر.

ـ سألتُ السؤال نفسه عنك..

ـ كيف؟ لا أفهم.

ـ كيف تزوجتِ طارق وأنت غارقة في العمل بين بلدين؟

ـ لأنني وجدته في مصادفة نادرة لا تتكرر، وعندما سعى إليّ رحّبت به.

ـ إنه يحبك جداً. هل قال لك ذلك؟

ـ لا. وأنا أحبه كثيراً. هو حبي الذي انتشلني من وحدتي، رغم غرقي تماماً في عملي.

وغيّمت فترة صمت قالت كارول بعدها، لتكسر السكوت:

ـ رغم أن الحياة أصبحت أكثر تطوراً، إلاّ أنها صارت أكثر تعقيداً.

ـ أمر مثير فعلاً وغير مفهوم، ولذلك أنصحك بالبعد عن التوتر بسبب الخوف على أو من مستقبلك في عملك.

ـ هل تلاحظ ذلك؟

ـ أكيد.

ـ رغم أنني لا أحاول إظهاره.

ـ هذا أخطر. حاولي التفرغ للحظة مهمة وقريبة في حياتك.

طلبت كارول من زميلتها في روما التي تقدم البرنامج، بعد أيام من دخولها شهرها الثامن أن تتولى إعداده، لأنها أصبحت لا تستطيع التركيز، أو الصبر على القراءة والبحث والتفكير.

ـ إن شاء الله تلدين بالسلامة. قالت لها زميلتها.

وكلما تقدمت الأيام بها، كانت كارول تشعر أنها مسيّرة لا إرادة لها، ثقيلة الحركة تنام فترات طويلة أثناء النهار، ويصيبها الأرق ليلاً.

٧

أيقظت كارول طارق من النوم قبل الفجر بساعتين تقريباً في الثالث عشر من آذار، وأخبرته أنه من الأفضل أن يأخذها إلى المستشفى،لأنها تحس وكأن موعد ولادتها أصبح قريباً. ونهض طارق من الفراش وهو يشعر بوطأة الساعات المهمة القادمة عليهما، مثله مثل كل أفراد الإنسانية الذين تفرحهم وترهبهم في الوقت نفسه ساعة الولادة، رغم التمهيد النفساني لها خلال التسعة أشهر السابقة عليها.

انعكست تلك الفرحة الممزوجة بالقلق منذ ولادة أول إنسان، على سلوك الزوجين، وعبّرا عنها بارتداء ملابسهما بصمت ومغادرة المنزل بهدوء. ولم يقطع سكون مشوارهما إلى المستشفى، في ساعات الليل الأخيرة، سوى ابتسامة بسيطة على شفتي كارول، عندما نظر إليها طارق وهو يعبر المدخل الرئيسي.

لم يدر طارق لماذا أحس وكأنه يسمع كلمات معبّرة موجزة من ابتسامة كارول هذه. كما لم يعرف سبب إحساسه الشخصي بالخوف عليها هي تحديداً من هذه الخطوة، وترجم لحظة الخوف هذه بقبلة على خدها، قبل أن تغادر السيارة إلى غرفة الاستقبال الأولية.

ـ المفترض أن الخوف يكون من نصيبي أنا. قالت كارول له.

ـ هل نسيت أننا نتقاسم كل أحاسيس حياتنا؟

ـ اطمئن. سيتم كل شيء بسلام.

ـ لم أشعر بقيمة هذه الكلمة سوى الآن.

عرفا بعد الفحص الأولي أن شعورها بقرب موعد ولادتها صحيح، وقيل لهما إنها ستبقى لأنه لم يبق سوى ساعات فقط على نهاية مشوار حملها.

ـ سأعود للمنزل لأحضر الأشياء والملابس اللازمة. همس طارق لكارول بعد أن أوصلتهما الممرضة إلى غرفتها.

ـ حاول ألاّ تنسى أي شيء. وأنا قد أعدّيت كل ما يلزمني والطفلين في زاوية غرفة النوم داخل شنطتين، والباقي قلت لك عنه منذ أيام. هل ما زلت تتذكر؟

ـ نعم. موجود داخل الخزانة. سأذهب الآن.

ـ اتصل بأمي هاتفياً قبل عودتك، وإذا أرادت أن تحضر فليكن ذلك برفقتك.

ـ انتبهي أنت على نفسك. سأعود قبل التاسعة صباحاً.

غادر طارق المستشفى وأنوار الفجر تخدش ظلمة الليل، ولم يكد يصل إلى آخر درجة توصله إلى الطابق الأول في منزلهم، حتى فتحت جدته في آخر الممشى بابها ومدّت رأسها وهي تبتسم، وهمست بصوت واضح خافت له:

ـ هل اليوم ولادتها؟

وأومأ برأسه لها إيجاباً، وأشار بيده بحركة تدل على أنه سيعود إلى غرفتها بعد قليل. وخرجت جدته بكاملها من غرفتها وأوصدت بابها، ونزلت إلى الطابق السفلي حيث يوجد المطبخ، وأعدت ركوة قهوة، وصعدت بها مع فنجانين وبضع قطع من البسكويت إلى غرفتها. وما لبث طارق أن نقر على الباب الموارب وهو يفتحه.

ـ لقد عدت بذاكرتي سنوات وسنوات إلى يوم ولادة أمك.. ابنتي الوحيدة. بادرته جدته وهي تصب فنجاني القهوة.

ـ وكيف تنظرين إلى كل هذه السنوات؟

ـ مرّت كأنها حكاية. قالتها وهي تتنهد.

ـ قصدك حكايات؟

ـ يأتي كل إنسان بحكايته الخاصة به المرتبطة بحكايات الناس الذين سيتعامل ويعيش بينهم.

ـ هل أنت مقتنعة بذلك؟

ـ أكيد يا ابني. (وهي تنظر إليه بدهشة) يعطي العمر فهماً آخر للإنسان، غير فهمه ما قبل الشيخوخة.

ـ وهل أنت سعيدة بحكايتك؟

ـ نعم. لكنها(وشردت بعينيها بعيداً عنه) مرت بسرعة. قالتها والدموع تلمع في عينيها.

ـ هل مرت أيام كل هذا العمر بسرعة فعلاً؟

ـ أسرع مما يتصور الإنسان وهو صغير. حكاية ما بين " ساو لويس" ولبنان.

ـ هل تعتقدين أن " أوراق التاروت " تعمل في هذه اللحظات؟

ـ أنت تعلم أن زوجتك حامل بصبيين. ماذا أقول لك؟ هل أكذب؟

ـ ربما يوجد أمر ثالث لا نعرفه.

قالت له بعد قليل:

ـ سيرزقك الله بعد ساعات بولدين. لكن الأمر الغريب هو أنني أرى قطرات دم (وهي ترفع رأسها من فوق الأوراق). يبدو أنني خرفت ولم أعد أفهم مثل أيام زمان.

ـ أرجوك.. حاولي أن تكملين القراءة.

ـ قلت قطرات دم وليس موتاً. يجب أن تتماسك في

المستقبل القريب، ولا تجعل طبعك الحاد يسيطر عليك وقت الغضب.

ـ هل هذا كل ما لديك اليوم؟

ـ رغم أنك تعمل في مؤسسة أبيك، وهي لك في يوم من الأيام، إلاّ أن نجم عملك في صعود.

ـ سأذهب يا نجمتي الصاعدة إلى المستشفى الآن.

ـ انتبه على نفسك وزوجتك وابنيك. ولا تنسَ أن تتصل بعد الولادة مباشرة.

ـ عليك إبلاغ الباقين بما استجد اليوم (وهو ينظر إلى الساعة المعلقة في غرفتها) جرس المنبه لم يدق بعد في غرفة أبي.

غادر طارق المنزل في السابعة والنصف إلى المستشفى، ومعه كل الأغراض التي أعدّتها زوجته قبل أيام. واتجه أولاً إلى منزل أم كارول، وبادرها بالقول بعد أن فتحت الباب:

ـ أعلم أن رنين التلفون مزعج في الصباح الباكر، حتى لو كان الخبر سعيداً.

ـ هل كارول في المستشفى؟

ـ نعم. أخذتها منذ ساعات.

ـ قالت لي أمس إنها تحس بثقل لم تشعر به من قبل.

على أية حال انتظرني يا ابني.. سأذهب معك.. مبروك.. مبروك.

حاولت كارول أن تحثه على الذهاب إلى عمله، لأن أمها معها وقد قرر الطبيب المشرف على حملها أنها ستلد مساء، لكنه أجابها بتأكيد بقائه معها، لإجراء الاتصالات الهاتفية بمن تريد أن تخبرهم، إضافة إلى أن أعصابه مشدودة لدرجة عدم القدرة على عمل أي شيء لو ذهب إلى عمله.

نزل طارق إلى كافيتيريا المستشفى ليشتري جريدة ويتحدث مع أمه.

ـ عرفنا من جدتك. قالت أمه.

ـ أنا في منتهى التوتر.

ـ شيء طبيعي. أبوك كان كذلك وقت ولادتكما. هل أنت بجوار كارول؟

ـ لا.. أنا في الكافيتيريا. لكن أم كارول معها في الغرفة.

ـ سأكون عندكم بعد حوالي ساعة.

صعد طارق إلى الطابق الخامس مرة أخرى وجلس في غرفة كارول يتصفح الجريدة، لمجرد تسلية نفسه بشيء. ووصلت أمه عند الحادية عشرة، وجاء أخوه عند منتصف النهار تقريباً وهو يرتدي ملابس غرفة العمليات الخضراء.

ـ قرأت التقارير قبل حضوري. اطمئني. كل الأمور تسير بشكل طبيعي بالنسبة لأول ولادة لك وبمولودين أيضاً. قال روبير لكارول وهو يمسك معصم يدها اليمنى بين أصابعه.

ـ قيل لي أن الولادة ستكون مساء.

ـ أنت في حالة ولادة فعلاً، لكن لحظة خروج الولدين في علم الغيب.

ـ لكنها ستكون مساء..

ـ هل بدأت الأوجاع عندك؟

ـ معقولة حتى هذه اللحظة.

ورد عليها بالإيطالية: No nascita senza dolore. ومعناها: لا ولادة بدون وجع.

ـ .....

ـ لكنها لحظات نادرة وخاصة رغم هيبتها، وتعود المرأة إليها بكل جرأة بعد حين.

ـ المهم أن أعبرها الآن وأفكر في العودة إليها مستقبلاً.

ـ ستعبرينها. مبروك سلفاً.

أمسك روبير بيد أخيه وخرج معه من الغرفة، وطلب منه أن يصحبه إلى أسفل البناية، لأنه رآه في حالة ارتباك.

ـ هل أنت سعيد؟ سأل روبير طارق.

ـ حالياً لا شعور محدداً عندي..
ـ لم أكن أقدّر أنك بهذه الرقة.
ـ يبدو أنك تمرست على مواجهة الألم.
ـ جزء من عملي أن أخففه أو أزيله، ولا أتوقف عنده.
ـ هل ستدخل غرفة العمليات الآن؟
ـ بعد قليل..
ـ هل تعلم أنها المرة الأولى التي أراك فيها بهذه الثياب؟
ـ وكيف أبدو؟
ـ ستحقق الآمال التي ينتظرها أبوك منك.

توقف روبير عن السير، ونظر أمامه إلى الردهة الطويلة التي يسيران فيها، وابتسم وقال لطارق وهو ينظر إليه:

ـ ما يعني أنني أوحي بالثقة لمن يراني.
ـ أكيد رغم عمرك الصغير.
ـ أراك بعد الظهر، قبل عودتي إلى المنزل.

صعد طارق إلى الغرفة التي فيها زوجته مرة أخرى، وتجاذب أطراف أحاديث عدة مع والدته وأم زوجته. ثم خرج وبدأ اتصالاته من هاتفه الخلوي ليُعلم الذين طلبت منه كارول أن يخبرهم بوجودها في المستشفى.

ـ لا أعلم لماذا أحسّ أنك قد أكملت رسالتي في

الحياة. قال له أبوه وهو يتحدث معه هاتفياً.

ـ لماذا تقول ذلك؟ الله يطول عمرك.

ـ الأمر لا شأن له بطول العمر.أشعر أن حفيدي هو آخر نقطة أستطيع الوصول إليها. شعور جميل فعلاً يجدد أبوّة الإنسان فيه... من المؤكد أنك مضطرب.

ـ وكيف عرفت؟

ـ لأنني شخصياً كنت أرتبك جداً في هذا الموقف. لا أكل أو عمل.

ضحك طارق ضحكة طويلة متقطعة، كل جزء منها أعلى مما سبقه، بينما كان أبوه يبتسم وشريط ذكرياته يمر أمامه.

ـ طارق.. كن بجوار زوجتك الآن، وأراك ليلاً إذا أراد الله.

تكلم طارق مع كل الذين تحدث معهم باسترسال، ولم يتكلم مع كارول ـ وكذلك هي ـ في ذلك النهار سوى باقتضاب. ربما كان كل منهما يحس أن الكلام ليس مهما في هذه اللحظات، بقدر أهمية الوليدين اللذين على وشك الحضور، أو أن تأخر عملية الولادة نفسها عن الموعد الذي قرره الطبيب جعلتهما يتصرفان هكذا. كانت تنظر إليه من حين لآخر نظرة طويلة، تعكس الألم المتزايد المرسوم في عينيها.

طال انتظار الجميع ـ سواء من في المستشفى أو خارجها - حتى الليل، وسأل طارق السيدتين المنتظرتين معه إذا كانتا ترغبان في العودة إلى منزليهما، لكنهما أصرّتا على البقاء.

وقال له الطبيب المشرف على حمل زوجته عند منتصف الليل:

ـ آلام المخاض زادت عن اللزوم، وإذا استمر الأمر كما هو عليه سأضطر لإجراء ولادة قيصرية، لأن الولدين مستعدين للخروج من الرحم، وكارول غير مستعدة. أخاف على الجميع من مفاجأة غير سارة.

ـ كما ترى يا دكتور. الأمر يعود إليك.

ـ سأنتظر ساعة فقط.

وعاد الطبيب بعد ساعة تماماً وطلب من الجميع الخروج من الغرفة، ولحق بهم بعد قليل وهو مبتسم لأول مرة، واقترب من طارق وقال له:

ـ ستنزل كارول معنا الآن إلى غرفة العمليات. ستكون الولادة طبيعية. تعال معي لو كنت تحب أن تشارك طاقمنا هذه اللحظات.

ـ لا أستطيع. قالها طارق وهو يشبك أصابع كفيّه معاً.

أتت الممرضات بسرير متحرك وأخذن كارول مستلقية فوقه، وسار الموكب بسرعة، بدت مدهشة بالنسبة لطارق،

في ردهة الطابق الخامس، واختفى الموكب داخل المصعد.

ـ هل سنقف هنا؟ سألته أم كارول.

ـ وماذا سنفعل؟

ـ إبقي يا أم روبير هنا. سننزل أنا وطارق.

وأمسكته من يده ولم تنتظر ردّ أمه ولا ردة فعله. ونزلا على الدرج - من شدة انفعالهما ـ إلى الطابق السفلي تحت البناية.

ـ هل تعرفين الاتجاه الصحيح؟ سأل طارق حماته.

ـ هي الولادة الوحيدة هذه الساعة. سنعرف من الأصوات.

وقفت السيدة في منتصف الممر الرئيسي وأصغت السمع، ثم قالت له: هناك. اتبعني.

كانت أم كارول محقة لأنهما كلما اقتربا من الغرفة التي توجهت إليها، زاد سماعهما لأصوات مختلفة، إلى أن وصلا إلى باب مفتوح، وقفا خارجه. وسمع طارق صوت زوجته وأوامر شبه عسكرية من الطبيب المشرف على الولادة. وساد صمت مريب فجأة، وسكون يعكس برودة المكان الذي يقفان فيه في ذلك الوقت.

وأرهفت حماته السمع بالطريقة نفسها، وابتسمت. وبدأ صراخ رضيع ما لبث أن صار واضحاً. وشدّته حماته من يده.

ـ تعال وانظر.

واقتربا من الباب المفتوح، ورأى ممرضة تمسك بطفل من رجليه وتسقطه في مغطس وتبدأ في تنظيفه. وانتبهت الممرضة لحركة رأس الوليد المتجه نحو والده.

ـ اقترب.. هذا أول ولد. قالت الممرضة له.

وسمع صراخ الثاني يشق الصمت المطبق الذي احتوى مشاعره وهو يرى ابنه، في اللحظة التي تقدم فيها بالدخول. وبينما كانت الممرضة تجفف الطفل، خرجت ممرضة أخرى من غرفة داخلية وهي تحمل المولود الثاني، الذي كانت عيناه شبه مغلقتين، وفتحهما بمجرد أن نزل في المغطس.

بدأ طارق يقبّل ابنه الذي ألبسته الممرضة ملابسه، وهو يحمله بكل حنان. وكانت جدته تلمس بشرته بيدها، وتعلّم طارق كيف يحمله بشكل صحيح.

ـ مبروك. بعد دقائق تخرج كارول. الجميع بخير وأنا ذاهب لأنام. قال الطبيب لطارق.

ألبست الممرضة الثانية المولود الآخر، ورقد الطفلان في سريرين متحركين صغيرين جداً، بين ابتسامات طارق وجدتهما، ولمسهما الدائم للطفلين. وخرجت كارول على سريرها المتحرك أيضاً، واتجهت أمها نحوها.

ـ مبروك.. طفلان جميلان فعلاً. حمداً لله على السلامة.

سار الموكب إلى المصعد بينما طارق يمسك يد زوجته مرة، ويعود ويلمس كل ابن. وعندما وصل المصعد إلى الطابق الخامس قالت إحدى الممرضتين المرافقتين:

ـ سيذهب الصغيران إلى الغرفة المخصصة للرضُع الآن.

وسار طارق وحماته بجوار كارول، ووجدوا أمه تنتظر في الردهة.

ـ أين الصغيران؟ بادرتهم الأم.

ـ في غرفة مخصصة لهما. قال طارق.

ـ حمداً لله على سلامتك يا ابنتي. قالت لوس وهي تقبّل خد كارول ويديها.

وبعد أن وضعوا كارول في سريرها، طلبت منهم الممرضة الذهاب لأنها ـ كارول ـ يجب أن تستريح.

وغادر الجميع الغرفة وأوصل طارق حماته إلى منزلها، واتجه بعد ذلك إلى منزلهم. وعرفا ـ هو وأمه ـ من أبيه وأخيه اللذين كانا منتظرين أن الطبيب المشرف على الولادة اتصل بزميله ـ روبير ـ وطمأنه على الجميع.

ظن طارق أن الحمّام الدافئ سيساعده على نوم عميق، لكنه أدرك بعد قليل انه في حالة انتباه شديدة تمنعه

من النوم، فنزل إلى الطابق الأول وأدار التلفزيون، لمجرد وجود شيء معه يسليه، بينما كان شريط الذكريات منذ أن رأى كارول لأول مرة يدور في مخيلته ويتوقف متأملاً عند أمور معينة، لم يتوقع تذكرها بهذا الوضوح ودقة التفاصيل الصغيرة.

ظلت صور الذاكرة تتواتر إلى أن وصلت عند خاطر لم يرد على ذهن طارق من قبل. وجود كارول وحيدة مع آلام المخاض، بعيدة عن الأضواء والاتصالات والخطابات والناس الذين تعرفهم.

أضواؤها وعلاقاتها التي تعتبرها كنوزها الخاصة، وأزعجها كثيراً البعد عنها طوال الفترة الثانية من حملها. كل هذه الأمور تركت كارول منفردة مع لحظاتها المؤلمة. أو تركتها هي مضطرة.

تذكرها طارق وهي تتحرك في المنزل كأنها نمرة أسيرة، تتجاهل حتى مشاهدة التلفزيون في الفترة الأخيرة من حملها، وتخشى المنافسة المحمومة التي قد ترجعها خطوات كثيرة عن هالتها المرصعة بالاهتمام وعشرات الرسائل والاتصالات، أو تجعلها تفقد جزءاً ـ صغيراً أو كبيراً ـ من نجاحها.

كان طارق يحاول إقناعها بأنه ربما لا يفهم شعورها، لأنه مطمئن في مجال عمله، ويعتبر أن المنافسة تُظهر

الإنسان الموهوب أكثر، وأنه يرى أنها بمجرد عودتها سيعود إليها كل ما تفتقده، رغم قناعتها أن أصحاب مجالات الإعلام يهتمون بالموجودين ؛ صنّاع الحركة والباحثين عن الخبر، وينسون البعيد لفرط التحرك الدائم، وركضهم هم أنفسهم وراء العنوان المثير، والجديد في حياة الليل والنهار، ودوائر الكلام عند الهامسين والجدّيين والمدعّين.

ـ هل استيقظت باكراً لهذه الدرجة؟ سألته جدته، وهي تلمس شعر رأسه بأناملها، وتستعد للجلوس بجواره.

ـ إنني لم أنم.

ـ أنا أشطر منك.. نمت بعد سماعي خبر الولادة. هل الأباء الجدد في هذه البلاد لا ينامون؟

ـ أعصابي مشدودة ولا أعلم لماذا.

ـ كان يجب أن تظل في فراشك على الأقل لتستريح. صفوف طويلة من المهنئين أمامك اليوم. هل ستغفى أثناء التهاني؟!

ـ يتميز بعض الناس بخفة الدم، لكن أنت أهم ختيارة ظريفة قابلتها في حياتي.

ـ ربما لأنك تراني بعين الحب.

ـ جاءني منافسان لك منذ ساعات.

ـ كلنا سنحبهما. متى سيصلان؟

ـ لا أعلم. سيقرر الطبيب ذلك.

ـ اشرب قهوتك معي، ثم خذ حمّام الصباح، وانزل وتناول فطورك قبل الذهاب إلى المستشفى.

وبينما كانا يتناولان الإفطار، سلّم عليهما أخوه روبير، وذهب إلى عمله في المستشفى. ثم جاء أبوه وشاركهما الطعام والحديث.

ذهب طارق إلى حماته واصطحبها إلى المستشفى، وسأل عن ابنيه وأخبرته كارول أنها أرضعتهما، ثم أخذتهما الممرضة لإجراء فحوص بالرنين عليهما للتأكد من سلامتهما.

ـ لماذا؟ سألها طارق.

ـ إجراء روتيني بعد التطور الذي حدث في عالم الطب.

بدأت الاتصالات تتوالى، كما بدأ المهنئون يفدون قبل الظهر، وشعر طارق أن الساعات تمر أسرع من يوم أمس. وكان الزوار يسألون عن الطفلين، وأتت ممرضة بهما ليناما بجوار أمهما وليراهما السائلون عنهما.

أدرك طارق أن ساعة الغداء قد حانت عندما بوشر توزيع الطعام في الغرف. وبينما كانت كارول تثرثر مع صديقتين زائرتين، جاء أخوه وتحدث مع كارول وهنأها بالسلامة، ولم يجد طارق أي تفسير لمرور غيمة كره

مفاجئة في شعوره تجاه روبير في هذه اللحظة، واندهش منها كثيراً.

اعتذر روبير بالذهاب سريعاً، لأن الجراحة التالية على وشك أن تبدأ، وغادر الغرفة وهو يمسك أخاه من يده.

ـ على فكرة عملي اليوم انتهى. قال روبير.

ـ ولماذا لم تمكث معنا؟

ـ طارق عندي شيء مهم للغاية أقوله لك.

ـ خيراً.. ما هو؟

ـ لا أعرف كيف أبدأ..

ـ ابدأ منه مباشرة.

ـ أحد الولدين.. أنت لم تحدد اسميهما حتى هذه اللحظة، لكنه الطفل الذي في معصمه شريط أزرق.

ـ ماذا به؟

ـ أخبروني أنه يعاني من مشكلة مهمة في جهازه البولي.

ـ ما هي؟ وكيف لم تظهر في الفحص الشهري وهو في بطن أمه؟

ـ إنه عملياً لا يستطيع التبول. والمشكلة ظهرت بعد استقلاله في الحياة والغذاء عن كارول.

ـ وما هو حلها؟

ـ أتكلم معك كطبيب الآن. سيموت لو لم نجر جراحة له.

ـ غداً؟

ـ الآن.

ـ الآن؟!

ـ حاول أن تسمعني بعقلك فقط. سأباشر اتصالاتي حالاً بطبيبين متخصصين في جراحة المسالك البولية للأطفال. لا يوجد غيرهما في لبنان حسب معلومات قسمنا. أدعو الله أن يكون أحدهما تحديداً هو طبيب هذه العملية.

ـ لماذا؟

ـ لم تحدث في تاريخه الطبي حالة وفاة مباشرة واحدة.. قديس.

ـ إنني مستعد أن أدفع..

ـ طارق.. طارق.. كل الأبناء غالية عند الأباء، وكثيرون على استعداد للدفع. المهم أن يكون هذا الطبيب قادراً على الحضور بعد ساعات.

وضع طارق كفه الأيسر على رأسه، وبدا كأنه يستوعب ما يقال، ويدرك أن ابنه هو المعني. وأيقظه أخوه من لحظة شروده.

ـ اسمعني.. لا تقل أي شيء لكارول، حتى لا تتأثر وتتغير عملية درّ الحليب عندها، ونصبح في مشكلتين.

ـ وماذا أفعل الآن؟

ـ أخذت ممرضة الطفلين بعد خروجنا مباشرة من غرفة كارول. ستذهب أنت الآن إلى غرفة الحضانة وتأخذ ابنك إلى الطابق السفلي.

ـ إلى أين؟

ـ لعمل صورة بالأشعة لرئتيه وسيتم فحص دمه و قلبه استعداداً للعملية.

ـ لكنه صغير.

ـ سيجري عليه ما يتم على الكبار. وستكون أنت معه حتى لا يبكي، لأنه يعرف صوتك ويميّز رائحتك.

ـ هل ستكون معه أثناء الجراحة؟

ـ إنها بعيدة تماماً عن تخصصي. كن على ثقة أن نخبة متميزة ستكون معه.

ـ حاول أن تكون أنت بينهم.

ردّ روبير بعد لحظات:

ـ كما تريد.. سأتابع قلبه أثناء العملية. إذهب الآن.. وبعد انتهاء هذه الأمور، ارجع إلى غرفة زوجتك، وسأقول لك كل التطورات لاحقاً.

ذهب طارق إلى غرفة حضانة المولودين، وأخذ ابنه وهو في ذهول تام من السرعة التي توالت بها أحداث اليوم، لدرجة عدم تصديق ما يحدث. ونزل بابنه النائم إلى الطابق السفلي، وسأل عن غرفة مختبر المستشفى، وأُخذ

سنتيمتر من دمه، واستيقظ المولود بسبب ألم وخزة الإبرة. وقيل له في المختبر أن يذهب إلى الغرفة الرقم 19 لعمل تخطيط القلب.

وعرف فيها أن الجميع على علم بوصوله، فلم ينتظر أي دور. ثم ذهب إلى غرفة التصوير بالأشعة، وطلب منه الطبيب أن يضع أكياس رمل صغيرة على يدي وقدمي ابنه، حتى لا يتحرك وتفسد الصورة.

ولم يتمالك طارق مشاعره وهو يضع ثاني كيس على يد ابنه اليمنى، ووقف دامع العينين أمام المنضدة. وطلب منه الطبيب الابتعاد وراء الحاجز الزجاجي، وأتم هو العمل، والمولود ساكن هادئ كأنه أدرك خطورة ما يحدث له، وأبدى تعاوناً جعل الطبيب نفسه يتأثر للغاية.

ـ بالنجاح والسلامة إن شاء الله. قال الطبيب لطارق وهما خلف الحاجز الزجاجي السميك، بينما الأجهزة تصور رئتي الطفل، وطارق لا يستطيع مغالبة دموعه.

غادر طارق غرفة التصوير بالأشعة، وأعاد ابنه إلى غرفة الحضانة، واتجه إلى الغرفة التي فيها زوجته، بعد أن قيل له بأنهم سيقولون لأمه إنه تناول حليبه من الزجاجة ونام حين تسأل عنه، لأن الرضاعة ممنوعة عليه قبل الجراحة.

حاول طارق وضع ابتسامة على شفتيه، وهو يصافح

الزوار في الغرفة، لكن الإرهاق والحزن هزما تلك الابتسامة المصطنعة. ولاحظت كارول بشرته التي تحولت إلى زرقة داكنة.

ـ أين كنت طوال هذه المدة؟ سألته كارول.

ـ تناولت غذاءً سريعاً مع روبير في الكافيتيريا.. لم آكل منذ ظهر أمس.

ـ من الفرحة. قالت إحدى الزائرات.

ـ ولماذا يبدو عليك هذا الإرهاق؟

ـ هل يبدو إنني مرهق؟ بالعكس أنا على ما يرام.

رجع الزوار مرة أخرى إلى حديث المجاملات المعتاد أن يكون في تلك المناسبات، وكانت كارول تخطف لحظة بين آونة وأخرى، وتنظر إلى زوجها الذي بدا شارداً. وكان رنين الهاتف يقطع الحديث أحياناً، وترد كارول على التهاني الهاتفية. ولاحظ الجميع اهتمامها الشديد بإحدى المكالمات:

ـ أهلاً سعادة الشيخ.

ـ .....

ـ لم أتوقع اتصالك الكريم فعلاً.

ـ .....

ـ لهذه الدرجة؟ كلهن فيهن الخير، والشاشة منيرة بالجميع.

ـ .....

ـ إن شاء الله. سأعود قريباً.

ـ .....

ـ تتحدث من لندن؟ ومن قال لك؟

ـ .....

ـ أولاد حلال وأنا أحبهم جداً. وشكراً لتكريمي بهذا الاتصال.

ـ .....

ـ أظن بعد يومين.

ـ .....

ـ سأكون في انتظار زيارتك الكريمة.

ـ .....

ـ شكرا ومع السلامة.

وعادت كارول بمعنويات مرتفعة إلى زوارها بعد هذا الاتصال الذي كان واضحاً أنه من صاحب القناة الفضائية التي تعمل فيها. ولم تفرغ الغرفة لحظة واحدة من المهنئين، كما توالت باقات الزهور لدرجة أنها بدأت توضع في الممر بجوار الغرفة.

جاء روبير بعد الغروب بقليل، وصافح من في الغرفة وقال لكارول:

ـ اسمحي لنا بطارق الآن. لدينا مشوار مهم نؤديه معاً.

ـ بملابس غرفة العمليات؟

ـ لقد انتهيت تواً.. سأغيّر ثيابي، وننطلق من غرفة الأطباء.

ـ طارق.. أطلب منهم أن يأتوا بالصبيين قبل أن تذهب. طلبت منه كارول.

ـ سأقول لهم أن يرسلوا المستيقظ منهما ويتركون النائم. قال لها روبير ممازحاً.

ـ على فكرة.. أنطوان لم يأكل حتى الآن.

ـ قالوا لي إنه رضع حليبه من الزجاجة، وربما يكون نائماً.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ أفراد طاقم المستشفى لا يكذبون على بعضهم بعضا. وهذه مسؤولية.

ـ متى ستعودان؟

ـ بعد حوالى ساعتين.

طلب روبير من أخيه في الردهة أن يأتي بالطفل إلى غرفة العمليات، وستصحبه ممرضة. وعند غرفة حضانة المواليد الجدد قال روبير:

ـ سأذهب الآن وأراك بعد العملية. انتظرني في مكتب رئيس القسم بجوار غرفة العمليات.

ـ من سيجري الجراحة يا روبير؟

ـ القديس الذي أخبرتك عنه، ومعه طاقم يصعب على الموت النفاذ بينهم.

قال روبير بكل ثقة، ثم اتجه إلى المصعد.

وصل طارق إلى غرفة العمليات وهو يحمل ابنه شبه النائم، وأعصابه تكاد تجعله لا يستطيع السير على قدميه. خُيل إليه أنه يمشي فوق عجينة طرية وليس أرضاً صلبة، وأن الأوكسجين قد انعدم وجوده من المكان.

وفي منتصف المسافة ما بين قاعة العمليات والغرفة المؤدية إليها، توقف وقد أحسّ أنه يستحيل عليه عبور هذه الأمتار القليلة، لأن قاعة العمليات قد اختفت من أمام بصره الزائغ، وقال للمرضة المرافقة:

ـ من فضلك.. خذي الطفل وادخلي به..

تناولت الممرضة أنطوان وسارت إلى وجهتها، وخرج طارق وهو يشعر أن الكون بكامله قد عمّه صمت مطبق، يجعله غير قادر على التنفس، أو إدراك أي شيء سوى نفسه هو فقط. وأخذ يفتش بعينيه الدامعتين عن غرفة رئيس القسم، ودخلها وجلس على أقرب مقعد وهو في حالة انكسار قلب لم يعرفها من قبل.

وخرج منها بعد دقائق معدودة إلى الردهة، ونظر باتجاه غرفة العمليات وتخيل أن كل ما يحدث مجرد

مزحة سمجة ثقيلة، وأن الباب سيُفتح ويخرج أخوه ليقول له إن التشخيص خاطئ وأنطوان لا يشكو من شيء.

كانت الردهة خالية وموحشة، لأن العمليات عادة لا تُجرى مساء، إلاّ المستعجل منها، أو إذا تصادف حضور إنسان مصاب في حادث.

بدا الزمن لطارق كأنه غير موجود. كأن الوقت لا يتحرك إلى الأمام أو عكس عقارب الساعة. وتذكّر في كونه الصامت وزمنه غير الكائن، العبارة التي قالتها جدته له وهي تقرأ أوراق "التاروت". كانت الفرحة مخضبة بدم فعلاً. وتمنى من كل قلبه أن يبتعد الموت.

ـ هل يستطيع الموت أن يقبض على رضيع لا ملامح له حتى؟

سأل طارق نفسه وهو يطرد هاجساً أسود همس له أن أحد الصبيين على الأقل سيعيش، ولن يخرج هو وزوجته من المستشفى خاليي الوفاض.

ورجع إلى غرفة رئيس القسم المفتوحة له تحديداً ليجلس فيها، لأنه كان مضعضعاً، وبدأ يشم رائحة معدته الخالية في أنفه، وهمّ بالذهاب إلى الكافيتيريا لشراء زجاجة ماء، لكنه رجع بعد عدة أمتار ونظر إلى الغرفة المغلفة بأسرار الوجود والعدم لمن هم خارجها، وتذكّر

كلام روبير عن الطاقم الذي يصعب أن ينفذ الموت بينه. ووقف على باب رئيس القسم ينتظر.

ثم عاد ودخل وجلس على الكرسي. ولم يدر لماذا تذكر محمد دياب، وهو يدرك لأول مرة وجود تلفون على المكتب.

شرح طارق لمحمد دياب بإيجاز شديد ما حدث، وكأنه يتحدث مع نفسه، لأن الجانب الآخر من الخط الهاتفي لم يرد عليه بأي كلمة.

ـ عم محمد.. هل تتابعني؟

ـ .....

ـ آلو؟!

ـ ناد عليه ليعود.

ـ لكنه في حالة تخدير تام بين يديّ الطبيب.

ـ ناد عليه ليسمعك ملاكه الحارس، ويعود به إليك بإذن الله.

ـ سأعتبر أن ملاكه الحارس قد سمعك أنت.. نفسي مضطربة لدرجة الشلل.

أحسّ طارق أن الزمن بدأ يتحرك عندما فُتح باب غرفة العمليات فجأة، وخرجت منه الممرضة نفسها التي أخذت صغيره منه، وأكملت به مشواره الصعب على قلب وروح أبيه.

ـ أستاذ طارق.. يقول لك الدكتور روبير أن تصعد إلى غرفة زوجتك، وسيأتي هو بعد قليل.

لم يجرؤ طارق أن يسألها عن أي شيء وهو لم يزل في انتظاره المعتم، وصعد إلى الطابق الخامس على الدرج، ليقصّر المسافة الزمنية حتى اللحظة التي سيقابل أخاه فيها. ووصل إلى الغرفة ووجد أمه وحماته في انتظاره، ليعود بهما إلى منزليهما، ونظرات الغضب تفوح رائحتها من عيني كارول.

ـ أين كنت مع أخيك؟ لا أحد يعلم عن وجودكما في أي مكان أي شيء. وهواتفكما الخلوية مغلقة. قالت كارول له.

ـ سيأتي بعد لحظات.

ـ لماذا يبدو الجميع أنهم يكذبون علّي؟ وأين ابني الثاني؟ لا أصدق إنه يأكل وينام في غرفة الحضانة.

ـ ولماذا نكذب عليك؟

ـ اذهب وعد به، وإلاّ سأقوم أنا وأحضره.

خرج طارق من الغرفة وابتعد حتى وصل إلى نافذة في منتصف الردهة تقريباً، وجعل ينظر إلى نجوم السماء، ويحاول إرجاع دمعة ساخنة أبت ألاّ تعود ونزلت على خده.

وانتبه إلى حركة غير عادية في الردهة الخالية ونظر

باتجاهها، ووجد أخاه بملابس غرفة العمليات وهو يحمل الصغير، بينما وقفت ممرضة كانت تسير في هذه اللحظة بجوارهما وأخذت تداعب الطفل، وخيُل إليه أن ابنه يحرّك يده لها. وتجمد في مكانه خشية أن يكون ما يراه مجرد وهم، أوجده القلق والإرهاق والمعدة الخاوية.

لكن خطوات أخيه وهو يسير باتجاهه، أزالت شك وهم خداع البصر تماماً، فذهب مسرعاً إليهما وحمل ابنه وهو يقول:

ـ شكّيت في لحظة أنه لن يعود.

ـ .....

ـ هل أجريتم له العملية يا روبير؟

ـ بكل تأكيد.. هل تسأل لأنه غير نائم؟

ـ نعم.

ـ هو على حافة النوم فقط الآن.

ـ كيف؟

ـ هذا عمل طبيب التخدير.

ـ لنذهب إلى كارول، إنها تكاد أن تُجن.

شرح روبير لكارول كل الأمور، وأفهمها أنه هو الذي حذّر أخاه من قول أي شيء لها خوفاً عليها من صدمة، وأن الصبي بخير، وإذا كان هناك أي لوم، يقع عليه هو وحده.

كانت كارول تبكي وهي تحمل ابنها وتسمع تفاصيل ما حدث. ولم تعلّق بأي كلمة سوى تقبيل وليدها.

وأخبر روبير السيدتين المنتظرتين أنه سيوصلهما بنفسه، لأن طارق سيبقى في المستشفى.

ـ لماذا؟ سأله طارق.

ـ سيرضع الولد بعد خمس ساعات من أمه. وقبل الفجر يجب أن يتبول.

ـ وإذا لم يتبول؟

ـ اتصل بي على هاتفي الخلوي. سيكون بجوار أذني فوق المخدة.

ـ وهل ستأتي؟

ـ أكيد.. لأن هذا الأمر نستطيع معالجته بدون الطبيب الذي أجرى العملية.

ـ اتفقنا.

ـ أعلم أنك مرهق ولم تنم منذ يومين.

ـ لا عليك. المهم سلامة الصغير.

غادر روبير المستشفى مع السيدتين، وهو على يقين أن عملية التبول البيولوجية لو لم تتم سيموت ابن أخيه. والاتصال الهاتفي الذي طلبه، ليذهب ويكون بجوار أخيه وكارول في هذه اللحظات العصيبة.

وأيقظ رنين الهاتف المزعج روبير فجراً من نومه

المتقطع، وهو على يقين من سماع الخبر المشؤوم. وردّ قبل أن يسمع صوت محدثه:

ـ ألو.. تكلم يا طارق؟

ـ الولد لم يتبول.

ـ هل رضع من أمه؟

ـ مرتين. أولهما بعد ذهابك بخمس ساعات، والثانية منذ ساعة.

ـ هل أنت متأكد مما تقول؟

ـ متأكد.

ـ أمر غريب فعلاً. كان قديساً معنا في غرفة العمليات فكيف يحدث ذلك؟

ـ لا أعلم.

ـ على أية حال سأكون عندك بعد دقائق.

ودق الهاتف الخلوي للمرة الثانية وروبير يقود سيارته باتجاه المستشفى.

ـ نعم يا طارق؟

ـ يبدو أن الولد تبول ونحن لم ننتبه.

ـ لا أفهم كلمة "يبدو".

ـ الولد حفاضه مبلل.

شعر روبير أن أخاه متوتر وكذلك زوجته، لدرجة عدم

قدرتهما على تمييز البول من العرق. وطلب منه الاحتفاظ بالحفاض كما هو بعد طيّه حتى يصل إلى المستشفى.

اندهش روبير من وجود محمد دياب في الغرفة مع طارق وكارول، كان يجلس على كرسيه بجوار كارول ممتقع الوجه، صامتاً على غير عادته، وبادرهم بتحية الصباح، وطلب من كارول الحفاض المطوي، واقترب بأنفه منه وشمّه بعمق ولحسه، وضحك بعينيه وشفتيه المزمومتين وقال لهما:

ـ لقد تبول فعلا.

ـ شكّينا في حواسنا. قالت كارول.

ـ كان الأمر صعباً على الجميع، حتى هذا الصغير.

نهض محمد دياب من مجلسه وهو صامت، وقبّل طارق على خده، وربت على كتف روبير، وسلّم على كارول وهو يقول لها:

ـ أراك بعد ظهر اليوم إن شاء الله.

وبينما كان روبير يرافق أخاه باتجاه المصعد، حتى يذهب إلى المنزل ليأكل وينام قال له:

ـ أريد أن أنبّهك لأمر بشأن ابنك.

ـ ما هو؟

ـ من الأفضل أن ينام بجواركما أنت وأمه في الفترة المقبلة، وليس في سريره.

ـ حتى نشعر بأي ضيق أو وجع يحدث له؟

ـ لا. لم يستوعب الصغير ما حدث ، والمؤكد أن الأمر مخيف ومزعج له.

ـ وماذا سيحدث؟

ـ من المتوقع أن يستيقظ ليلاً وهو فزع من صور أحلامه.. كوابيس كما نقول.

ـ هل يحلم طفل في مثل عمره؟

ـ حتى الجنين في رحم أمه يحلم.

ـ وما فائدة النوم بجوارنا له؟

ـ سيشعر بالأمان ويعود لينام حتى لو استيقظ بسبب كوابيسه.

جاء رجل ربعة خمسيني، أشقر بشعر مجعد قصير وعينين زرقاوين، في صبيحة اليوم التالي للجراحة التي تمّت، وخيل لكارول أنه زائر أخطأ الغرفة لأنها لم تعرفه، كذلك لم يتعرف عليه أحد من الموجودين معها، لكنه بادرها بالقول:

ـ حمداً لله على السلامة يا كارول.

وظنت هي إنه أحد مشاهديها وقد عرف بوجودها في المستشفى، لكنها ردّت عليه بعد تأمل ملامحه، وهو يضع إصبعه في كف الرضيع الذي أجريت له العملية وكأنه يتأكد من شيء ما، ويبتسم والمولود يمسك إصبعه بكفيّه الصغيرين.

ـ سلامتي أنا أو سلامة ابني؟ سألته وهي تقرأ تعابير عينيه على ردة فعل ابنها.

ـ أنتما معاً.

ـ هل أنت الطبيب الذي أجرى العملية؟

ـ نعم.. واسمي يوسف.

ـ كنا ننوي أن نسمي هذا المولود أنطوان، لكنني سأغيره إلى يوسف. ربما يكون مثلك عندما يكبر.

ـ شكرا. هذه أرقّ وأعمق مجاملة صادفتني في حياتي. الله يعيّشه وترينه أفضل منّي.

خرجت كارول مع ابنيها بعد يومين من المستشفى، وهي وطارق في غاية الإرهاق. وبمجرد دخولهم إلى المنزل انهمر الرز عليهم من الطابق الأول، وعلت زلغوطة طويلة تعبّر عن الانتصار أكثر ما تعبّر عن الفرح.

ورفع طارق عينيه إلى أعلى، ووجد جدته هي التي تفعل ذلك، فقبّل أصابع كفه الأيسر وألقى على المرأة البرازيلية التي تحييهم تحية لبنانية جبلية، قبلة مبللة بالشكر والتقدير.

٨

شعر طارق وكارول بعد عودتهما من المستشفى ومعهما المولودين يوسف وسمير، بالمتغيرات الجديدة التي حدثت في حياتهما المشتركة، بالإضافة إلى إرهاقهما بسبب التوتر الذي حدث بسبب الجراحة التي أُجريت لابنهما.

تغيير جوهري يشبه ذلك الذي اختبراه بعد خروجهما من الكنيسة زوجين. فقد أحسّا أنهما شخصان مختلفان تماماً عن اللذين دخلا، رغم ذهابهما بهدف محدد هو الزواج.

دخلت كارول إلى المستشفى وهي وزوجها على يقين من أنها حامل بتوأم، وخرجا منها وبصحبتهما إنسانين حقيقيين، وحياة لا تشبه أبداً حياتهما حتى فجر اليوم الذي ذهبت فيه إلى المستشفى.

امتلأت الغرف الثلاث التي كانا يعيشان فيها،

بأصوات المولودين نهاراً وليلاً. وكانا قد أعدا الغرفة المفتوحة على غرفة نومهما بسريرين صغيرين متحركين، إضافة لتجهيزها بأغراض أخرى تخص ابنيهما.

أدركا بعد يومين من رجوعهما، أن الأطفال حديثي الولادة عادة يختلف موعد أكلهم ونومهم عن الكبار تماماً، وبدءا في التأقلم مع الحياتين الجديدتين اللتين أضيفتا إلى حياتهما، والتعلم منها أيضاً. كما بدأت استشارات كارول لحماتها وأمها لتستفسر وتفهم أكثر.

وانقضي الأسبوع الأول وأيام متناثرة من الأسبوعين التاليين له في تلقي تهاني الأصدقاء الذين لم يأتوا إلى المستشفى، ورنين الهاتف من زملاء وزميلات كارول في روما، والأصدقاء الذين تعرفهم في العالم العربي، وبعض المشاهدين الذين عرفوا رقم هاتف منزلها في بيروت بطريقة أو بأخرى.

كما طمأنهم الطبيب الذي أجرى الجراحة، بسير أمور المولود يوسف على ما يرام، وطلب منهم مراجعته بعد شهر في زيارة روتينية.

لم يتغير إحساس مجيد باكتمال رسالته في الحياة منذ سماعه بخبر الولادة، وأُضيف إلى شعوره الحنان الشديد تجاه حفيديه. ورددت الجدتان لوس وهدى بأنهما تشعران بشيء من الفخر تجاه الصبيين. وهمست الجدة الأكبر

ماريسيلّا لكارول بأنها لم تتوقع أن يمتد بها الأجل لترى مثل هذين العصفورين الرائعين.

وبدأ طارق يتذكر المزاح الذي كان يسمعه من أهله أثناء الفترة الأولى من حمل زوجته، لأنه انقلب إلى واقع يشغل وقته كله. كان يعود من عمله ليبدأ مشاوير إلى عدة أماكن لتلبية احتياجات ابنيه. وتعجب ذات مرة من تساوي احتياجات الرضيع مع الكبير، بل وزيادتها إذا قاما بزيارة خارج المنزل.

أما كارول فقد كان عملها لا ينتهي. تُطعم أحد ابنيها، ثم تبدأ في إطعام الآخر.ولا تكاد تنتهي من استحمام أحدهما حتى تبدأ مع الثاني. ينام يوسف فيستيقظ سمير. يبكي واحد منهما ويتبعه الآخر.

كانت تقريباً تعيش نهارها وليلها في يقظة تامة، لأنها حتى أثناء نومها المتقطع، كانت تستيقظ إذا شعرت بحركة غير طبيعية من أحد ابنيها.

وكان الأمر نفسه يحدث مع طارق، لأنه لم يكن ينام إلاّ بعد نومهما. كان يوسف لا ينام إلاّ بعد أن يحمله أبوه. لذلك كان يذهب به إلى الغرفة الثالثة، ليشاهد التلفزيون كنوع من التسلية وهو يحمل طفله الذي ينام بعد منتصف الليل، ثم يعود ويستيقظ بعد فترة.

واختار طارق حلاً وسطاً هو إحضار سريره أيام

العزوبية ووضعه في غرفة ابنيه، وكان يضع يوسف لينام بجواره، حتى تستطيع كارول أن تحصل على قسط من الراحة ليلاً، وطالما نسى من شدة تعبه أن يجعل صغيره ينام في سريره المتحرك. واكتسب من هذه الطريقة التي ينام بها بجوار ابنه، عادة النوم بلا حراك حتى لا يؤذي المولود.

ـ هل تتذكر ما قلته لك بعد العملية؟ قال له روبير بعد أن أخبره بالطريقة التي ينام فيها ابنه.

ـ كم ستستغرق؟

ـ سيأخذ بعض الوقت حتى ينسى ذكرياته غير المفهومة والموجعة له.

بدأت كارول بعد أن تأقلمت مع أوضاع حياتها الجديدة بعد مرور أربعة أشهر بعد الولادة، التفكير في مستقبلها المهني، من خلال الوقائع المتغيرة تماماً من حولها، التي بدأت توحي لها بأن مستقبلها كمقدمة برامج مهدد بالغموض.

ولاحظ الجميع عودة الصمت والعصبية على سلوكها، بعدما اختفيا في الفترة التي سبقت ولادة الطفلين. ورجّح طارق أن عملها المتواصل من أجلهما هو السبب. فهي تصمت لترتاح من الرعاية التي تبدأ منذ الفجر إلى التاسعة أو العاشرة مساءً، ويصيبها التوتّر لتنفس عن تعبها وتتخلص منه.

لم يخطر على ذهنه أن زوجته بدأت مرحلة التفكير في ما بعد سنة الإجازة، وهي المدة التي أخذتها من المحطة التلفزيونية التي تعمل فيها. كانت كارول تفكر ماذا ستفعل بعد هذه الفترة، وتنتفض كل عضلاتها عندما تتخيل نفسها ربة منزل فقط، بعيدة عن دائرة النور التي تعودت عليها.

ـ قد تهتز الدنيا في وجه الإنسان لكنها لا تستمر في الاهتزاز.

قال لها عمها مجيد ذات مساء، وهي تضع أحد ابنيها على صدرها وتجلس أمام التلفزيون، ولا تشاهد ما تتابعه.

ـ هل تظن ذلك؟ سألته بعدما أيقظتها عبارته من شرودها.

ـ علمتني الحياة أن الغد على مسافة كبيرة منّا، وقد يحمل شيئاً لا نحلم أو نعدّ له.

ـ لكن الغد جزء مما نعمله اليوم.

ـ جزء منه وليس كله.

كان هاجس كارول هو كيفية العودة مرة أخرى إلى عملها، بعدما تغيرت ظروفها تماماً، وأصبحت أسيرة ولديها. أسيرة طفلين يعتمدان عليها تماماً، ولا يستطيعان أداء أي شيء وحدهما، سوى العمليات البيولوجية.

بدت إليها العودة إلى روما غير ممكنة، بالإضافة إلى

عدم ردّ الإدارة على عملها في بيروت حتى لحظة مغادرتها إيطاليا، ما اعتبرته ضمناً رفضاً للطلب.

شعرت كارول باستحالة عودتها مرة أخرى إلى الصحافة في بيروت، بعد دخولها لعبة الشاشة الفضية. وعلمت من خلال خبرتها أن العمل التلفزيوني قد انتقل بثقله إلى الخليج العربي، ولم يعد في بيروت غير محطاتها التلفزيونية المرهقة مادياً بسبب محدودية المدخول الإعلاني الذي يغطي جزءاً من مصاريف الشاشات التي تطمح للطلة عابرة القارات. إضافة إلى بعض مكاتب الشبكات الفضائية، ومنها مكتب الشركة التلفزيونية التي تعمل فيها.

حتى الحرية الإعلامية التي كان لبنان يتمتع بها، فقدت جاذبيتها بعد تخصيص قرى إعلامية في بعض الدول العربية لا رقابة عليها.

لم تطلب أية محطة تلفزيونية لبنانية كارول للعمل فيها، ومن جهة أخرى كانت تجد صعوبة في تقديم أوراقها إلى أي منها، فقد تحترق نهائياً لارتباط اسمها بإحدى الفضائيات. ومن مخاطر العمل المتصل بالشهرة أن يضر صاحبه ذا الاسم المعروف، لو اهتز حتى بنسبة صغيرة بين أصحاب القرار في سوق الإعلام.

كان صعباً عليها أن تعود إلى العمل في محطة تلفزيونية أرضية في بيروت "مذيعة ربط"، أو مراسل

أخبار على الأرض، نسبة إلى اسمها الفضائي الذي لا يجوز أن يعمل إلاّ في برنامج خاص به.

صارحت كارول طارق بهواجسها ودقائق سوق عملها التي لا يعرفها، واقترحت عليه أن تعود إلى إيطاليا لمدة سنة، تسرّب خلالها عبر زملائها أن بضع شبكات تلفزيونية تتفاوض معها للعمل في بيروت، وهكذا تتبلغ إدارتها بشكل غير مباشر أن هناك من يسعى إليها لتعمل في بيروت.

ـ ولماذا لا تسربين هذه التلميحات الآن؟

ـ لا قيمة لها لأنني خارج سوق العمل.

ـ وماذا لو فشلت مساعيك وأنت في روما؟

ـ تصدّق الناس الإشاعات وتتفاعل معها، ومن الممكن أن تتفاوض معي شبكات أخرى فعلاً.

ـ وإذا لم تتفاوض؟

ـ أعود نهائياً إلى بيروت.

ـ لكنك في بيروت الآن..

ـ أسيرة مشلولة عاجزة عن الحركة.

ـ ربما بسبب عملك وجلوسك في المنزل.

ـ هذه قواعد العمل في حقلنا، وتفكيري لم يتأثر بوجودي في البيت.

ـ كارول.. أنت تعلمين كيف وقفت بجانبك منذ البداية..

ـ ولا أنكر هذه الوقفة.
ـ ويجب أن تنسي العودة إلى روما بالطفلين.
ـ سيكونان مع جليسة أطفال أثناء غيابي.
ـ أمر غير وارد عندي ومستحيل.
ـ حاول أن تساعدني هذه المرة يا طارق.
ـ صراحة..لا يمكنني.

كان طارق على دراية باللحظات المزاجية المعتمة التي يمر بها، لو تأزمت الأمور من حوله تماماً، وتصرفه العنيف فيها. لذلك حاول بقدر الإمكان تحاشيها وتجنيب أسرته عواقبها، ولم يظن في يوم من الأيام أن كارول يمكن أن تدخل دائرة لحظاته هذه.

وحاولت هي إقناعه بعد عدة أيام بمجرد تجربة ستة أشهر، لتطلب عملاً وهي غير متقاعدة.

ـ لو كنت مجرد موظف لسافرت معك، لكنك تعلمين ما هو وضعي هنا. قال لها.

أدى تأجيل الصدام بين الزوجين، إلى تحاشي الحديث المشترك بينهما، سوى الأمور الحياتية الضرورية. وكانت كارول تدرك أنه على حق، لكنها أحست أنه فقد قدرته على النظر إلى الأمور الصعبة من زاوية مختلفة، والمبادرة بما يعجز عنه رجال كثيرون. أحست أن رعاية المولودين هي السبب في ما حدث له، وإحساسها بالأسر.

ـ "لا يربى ولد إلا بعد أن يهدّ جبل". كانت أمها تقول أحياناً بعد وفاة زوجها.

تذكرت كارول هذه العبارة وهي تنظر إلى ولديها ذات بعد ظهر كأنهما قطعتان من لحمها تلعبان أمامها، رغم كل ما حدث لها، والفتور الذي بدأ يتسرب بينها وبين طارق، وأدى إلى البعد الجسدي بينهما، ونومه في غرفة أبنيه على سرير عزوبيته الذي أصبح شيئاً طبيعياً، واختفاء دقائق المتعة المشتركة بينهما عند نوم الطفلين بشكل عميق.

لاحظت أمه وجدّته هذا الفتور وقرأتا ما يمكن أن يُقرأ بين سطوره بخبرتيهما، وتناقشتا فيه وكان رأي الجدة ماريسيلّا أنها فترة ستزول، يعودان بعدها إلى فورة دم الشباب الموجود فيهما.

ـ لكنني أخشى أن تؤدي هذه الفورة إلى شجار، وأنت تعلمين تصرف طارق. قالت لوس لأمها.

ـ أنا متأكدة أن ذلك لن يحدث بسبب الطفلين. هما عند كارول حياتها وأهم من عملها.

ـ لكن ما يقوله الإنسان في لحظة الشر، يصعب أن يتنازل عنه لأنه سيحس أن كبرياءه قد انكسرت.

ـ لا أعلم ماذا أقول لك.. فاتحي مجيد بالأمر.

وبمجرد أن تكلمت لوس مع مجيد عن هواجسها تجاه

أسرة ابنها، أخبرها أنه يلاحظ أيضاً وجود شيء غير طبيعي بينهما.

ـ كل الأزواج يمكن أن يكون بينهما أمر غير عادي، لكنهما لا يقتربان من بعضهما بعضاً. قالت لوس لمجيد.

ـ وهل انعدام ممارسة الجنس هو الخطر الوحيد بينهما؟

ـ هو وشهوة الطعام إشارتان مهمتان في حياة الإنسان.

ـ وماذا أستطيع أن أفعل؟ لقد قبل المستحيل من أجلها.

ـ هذا شيء حدث ولا يمكن العودة عنه.

ـ وأخاف أن يكون المستحيل القادم هو تصدّع ما بنيته.

ـ ولا يمكنك أن تسكت.

ـ سأتكلم عندما تنفجر قنبلة السكوت بينهما.

ـ أول مرة في حياتي أراك ببرودة الأعصاب التي أنت عليها.

ـ لا يمكنني عمل أي شيء الآن، لأنني لا أعلم حقيقة الخلاف.

ـ ولا يمكنك التلميح لهما أيضاً؟

ـ أنا لا أبصّر..

ـ هل سينقلب موضوع حديثنا ضد أمي؟

ـ أنا أحبها وممتن لها ما حييت. لكنني ببساطة لا أبصّر. وهما الآن سيخفيان أي معلومات عن حالتهما.

ـ هل يمكنك استنتاج أي شيء بخبرتك؟

ـ ربما كانت المشكلة في قلة اهتمامها بطارق بعد الولادة.

ـ هل تظن ذلك؟

ـ ممكن. وبعض الرجال حساسون تجاه هذا الأمر.

انتهز مجيد مناسبة حلول عيد ميلاد كارول في تشرين الثاني، ودعا الجميع إلى عشاء خارج المنزل، تعمّد أن يكون في المطعم الذي شهد حفل خطوبتهما، وتمنى أن يوحي لهما ببعض المشاعر ورومانسيات أيام الخطوبة، خصوصاً أنهما ـ أثناءهاـ كانا يعيشان في بلدين بعيدين نسبيا. لكنه لاحظ أثناء العشاء حالة الجمود المعنوي بينهما، وشرود ذهن كارول أحياناً.

كان طبيعياً أن تتذكر كارول حفل خطوبتها، وخفتها وحيويتها في تلك الفترة، مقارنة بحالة الأسر التي تعيشها بسبب ابنيها الآن، وشلل حركتها بسب صغر عمرهما.

كما تواردت ذكريات الحفل نفسه لذهن طارق، وتعجب من تغّير المشاعر وفتور العلاقة الحيوية التي كانت تضخ الدم في شراينه بقوة. وتساءل في ما بينه وبين نفسه لماذا يقول الأزواج إن أيام طفولة صغارهما هي أحلى

أيام العمر ، بينما هو يرى أن العكس تماماً هو الصحيح.

ـ ربما لأن معظم الناس يعملون في وظائف عادية.. أو في بلدهم نفسه. ناجى نفسه.

وما أكد للجميع وجود أمر مزعج بينهما، هو إنهما قبّلا ابنيهما بعد إطفاء شموع كعكة عيد الميلاد، ولم يقبّلا بعضهما بعضاً حتى على الوجنات بشكل تقليدي.

ـ هل تذكرين ليلة خطوبتك يا كارول؟ سألتها الجدّة ماريسيلّا بعد إطفاء الشموع.

ـ أكيد. إنها ليلة لا تنسى.

ـ لكن بعد الإنجاب، يذهب جزء كبير من حب الزوجين لأولادهما. عقّب مجيد عليها بهذه العبارة ذات المعنيين.

ـ هذا صحيح يا عمي.

ـ على فكرة.. الأحاسيس لا تذهب لكنها تتغير. لا شيء يدوم مثلما هو.

ـ والطعام الذي يأكله الإنسان يتحول إلى طاقة. قال روبير.

ـ ويتشاجر بعض الأزواج بسبب هذه الحقيقة الغائبة عنهما. قال عمها وأضاف: و يعتقدون أن الغرام سيظل على درجة الحرارة نفسها.

ـ هل أحسست أنك مقيّد بولديك يا عمي؟ سألت كارول مجيد.

ـ نعم. لقد ظلّيت هنا ولم أرجع إلى البرازيل مرة أخرى بعد ولادة روبرتو وطارق، على رغم ظروف الحرب القاسية، ومستقبلي المضمون في ساو لويس.

ـ هل تحب ساو لويس يا عمي؟

صمت مجيد قليلاً لأنه لم يتوقع السؤال، وقال بعد أن أغمض عينيه للحظات:

ـ من أغرب الأمور، حب الإنسان لمكان آخر بمقدار قد يزيد عاطفياً عن محبة وطنه. عكس ما يقول منطق الحياة.

وسأل مجيد طارق بعد فترة صمت بين الجميع:

ـ ما رأيك في ما قلناه أنا وكارول؟

ـ أنا مع رأيكما في موضوع حب الأبناء، لكنني لم أجرب الاغتراب. سافرت للعمل أو السياحة. مجرد أيام.

ـ كانت كارول تسأل الناس دائماً، فلماذا لا تسألها "على الهواء" هذه الليلة؟ قال روبير لطارق.

ـ لن أسألها، بل أقول لها إنها حبّي الكبير.

ـ وأنت ياكارول؟ سألها روبير.

ـ ترسّخ في ذهني بعد الذي فعله مع محمد دياب أنه رجل المبادرات والحب. تمنيت في تلك الليلة صداقته..

أن يكون صديقي فقط.

ـ ولماذا لا تسألين أبي ما زلتما أنت وطارق على هذه الدرجة من التفاهم؟

ضحكت كارول بسبب سؤال روبير ونظرت إلى مجيد ولاحظت أنه يبتسم لها، رغم أنه لا يبتسم سوى لولديه فقط، مع أنه ليس بالرجل العبوس.

ـ اسأليني؟ قال لها مجيد وهو يتهيأ للجواب، وكأنها لم تتحدث معه في هذه الليلة.

ـ ما هو رأيك في الأبوة؟ سألته كارول بعد لحظات.

ـ أصعب وظيفة مارستها في حياتي. وظيفة لا تقاعد فيها.

ـ هل تؤمن بوجود الحظ في الحياة؟

ـ أكيد. هو نوع من المصادفة مثل ربح ورقة يانصيب. أو وجود ناس يؤمنون بك ويوصلونك إلى هدفك، رغم عدم معقوليته أحياناً.

ـ ماذا أحسست عندما رأيت عمتي لوس لأول مرة؟

ـ رأيتها وظهرها لي، لكنني تيقنت أننا سنتزوج لا محالة.

ـ قلت منذ قليل إن الأولاد يسببون حالة أسر، لماذا أنجبت مرة أخرى؟

ـ هل تريدين مني التحدث بحرية؟

ـ نعم.

ـ كنت أحب إطعام ابني وهو رضيع، ووجدت في عينيه نظرة امتنان لي. نظرة امتنان لا يمكن نسيانها وهو يرضع من زجاجته، أحببت أن أراها في عينَيْ مولود آخر.

ـ لم أسمع رد أكثر عفوية من هذا. وهل رأيتها في عينّي طارق؟

ـ الرُضّع ممتنون، لكن معظم أساليب الكبار ملتوية وغير شريفة.

ـ وماذا تقول عن العمر الطويل؟ أطال الله عمرك.

ـ نوع من الفن.

ـ ماذا تعني؟

ـ فن التعامل مع الحياة وعدم السعي إلى لحظة تقصف العمر.

ـ هل تعتقد أن الإنسان يقصف عمره أحياناً.

ـ نعم، أو يصيب نفسه بمرض يجعله شبه ميت.

ـ ما يعني أنه لا شيء مكتوباً على الإنسان.

ـ كل هذه الأمور اجتهادات، حتى أنني أؤمن أن الله غير ما سمعنا عنه. الله لا يمكن وصفه.

ـ بمناسبة ذكر الله.. ما أجمل ما قرأته أو سمعته من التعاليم السماوية؟

ـ مثل "السامري الصالح" الذي رواه المسيح، لأنه جعل المساعدة بين البشر غير مشروطة.

ـ كيف؟

ـ نساعد المحتاج حتى لو لم يكن من ديننا أو مذهبنا الطائفي.

ـ هل تعتقد أن ذلك جوهر الدين؟

ـ الإنسانية. وعلاقة الإنسان بالرب داخلية. ما شأني أنا كيف يعبد الناس الله؟

سكتت كارول وكأنها اكتفت بما سمعته، ورآها مجيد في لحظات سكوتها نجمة، كما قال لابنه ذات مرة. نجمة منزوية تعمل وتنتظر بشرف، ولا تستغل علاقاتها سوى لمصلحة عملها الفني فقط.

ـ على فكرة.. ما اسم المقطوعة التي رقصت عليها يوم خطوبتك؟ سألها مجيد وهو يتأملها خلال الومضة التي ترجمتها مشاعره تجاهها.

ـ أيهما؟

ـ الرقصة الثانية.

ـ "ابن البلد".

ـ كنت وهذه المقطوعة في غاية الروعة.

ـ .....

ـ هل تعلمين اسم الأداء الذي رقصت به؟

ـ رقص شرقي. أجابت كارول وهي تبتسم.

ـ صحيح، لكن أداؤك يُسمى "رقص الهوانم".

ـ وما هو؟

ـ الرقص في مساحة صغيرة، والهز بساقين مضمومتين، والاعتماد على الخصر واليدين لتبديل سرعة الرقص أثناء تغيير الجُمل الموسيقية.

وتحولت ابتسامة كارول إلى ضحكة، وهي تسمع وصف مجيد الدقيق الذي لم تسمعه من قبل، وصفقت له بعد نهاية شرحه.

ـ لا تنسي أنني عشت عمري الأول في الفنادق ورأيت الكثير من فنانات الاستعراضات. قال لها مجيد.

عادت لحظات التفاهم والانسجام بين طارق وكارول بعد هذه الأمسية وإن كان يغلب عليها الصمت بدلاً من البوح، بما يشعران به ويفور في دمائهما. وفي الأسبوع الأخير من تشرين الثاني جاء فاكس من مقر عمل كارول في روما، يسأل عن إمكانية عودتها بعد شهرين من تاريخه، وردّت هي بطلب تمديد إجازتها. وأجاب مدير المكتب برفض طلبها لحاجة العمل الشديدة لها، واستحالة تمديد إجازة حضانة مولود مرة أخرى.

أحسّت كارول أن حيّز حركتها قد ضاق عليها كثيراً، وانعكس ذلك عليها وعلى علاقتها بزوجها مرة أخرى، أشدّ من الأولى. وظهر بوضوح لأفراد عائلتيهما هذه المرة أن شيئاً مهماً يمكن أن يحدث، بسبب عودة كارول إلى

عملها تحديدا، واستحالة رجوعها إلى روما في الوقت الحالي، ورفض تمديد إجازتها لمدة سنة أخرى.

ـ هل يمكن لها قانوناً أن تأخذ الولدين معها؟ سألت لوس زوجها.

ـ لا يمكن أن تصل الأمور إلى هنا.

ـ وأين يمكن أن تصل؟

ـ نزاع طويل لا حل له، سوى شلل الطرفين. وبعد ذلك اتهامات متبادلة عن تدمير كل منهما للآخر.

ـ كيف تفكر في الأمر يا مجيد؟

ـ هي يتيمة الأب، وأنا أعتبرها ابنتي وليست زوجة ابني فقط.

ـ وماذا ستفعل؟

ـ خلافهما سيكون فادح الثمن. ولا يمكنني عمل شيء بدون معلومات واستشارات.

ـ إلى متى؟

ـ اتركيني بضعة أيام لأجد مخرجاً نهائياً من هذه المصيبة.

أخذ مجيد يقلّب في ذاكرته كل ما دار من حوارات بينه وبين كارول، ويسترجع انطباعاته الأولى عنها، ليقف عند نقطة محددة يمكنه الانطلاق منها. وهداه تفكيره إلى مقارنة بينه وبينها في نقطتين أساسيتين في حياتهما.

تخطاهما هو ولم تستطع هي. والأهم أنها أصبحت تدور في فلك قد يتسبب في تحطيمها مع أسرتها الصغيرة. وقرر مجيد أن يبدأ قراءة أخرى لما يحدث من خلال ابنه روبرتو، الذي يستنير برأيه أحياناً. وطلب منه موعداً في المستشفى.

ـ هل تشكو من شيء؟ سأله روبير.

ـ مطلقاً.. مجرد موعد معك.

وصل مجيد إلى المستشفى في الموعد المحدد تماماً مع ابنه، واتجه إلى الغرفة التي يجلس فيها الطبيب المناوب في العمل، في الطابق الأول في الجناح المخصص لعلاج وجراحة القلب، وجلس في انتظار روبير الذي لم يكن في غرفته.

دخلت إحدى الممرضات بعد دقائق من وصوله، واستفسرت عن اسمه وهي تبتسم، ثم أخبرته أن ابنه سيأتي بعد قليل، لأنه يشرف على مريض حالته حرجة.

كان هدف الأب من حضوره محدداً، وباله مشغول على أسرة ابنه الآخر من التفكك، ورغم ذلك وجد نفسه غارقة تماماً في ذكرياتها مع روبير المشرف على مريض في هذه الفترة، منذ دخوله كلية الطب ومثابرته المذهلة على العلم والبحث والتحصيل، ولحظات نجاحه الحلوة

التي طالما أسعد الأسرة بها في كل نهاية عام دراسي، وكان يخبرهم به ـ نجاحه ـ بكل هدوء.

لم يدر مجيد لماذا فكّر في هذه الخلوة في عزوبية ابنه، ولماذا أحسّ أن روبير يجب أن يفكّر في بناء أسرة والاهتمام بهذا الأمر بجدية أكثر.

كانت الحياة من وجهة نظر مجيد دوائر متتالية من الأهداف، بمجرد الوصول إلى أحدها، يجب أن يفكر الإنسان في هدف آخر، حتى لا يعيش المرء على ما حققه، ويمر الزمان عليه بدون أي تغيير.

كما لفت نظره أثناء تفكيره، أن ابنه لم يقل في يوم من الأيام، كما يقول من هم في مثل عمره، ولأمه على الأقل، أنه يفكر في فتاة بهدف الزواج. وتساءل في ما بينه وبين نفسه عن إمكانية صرف طاقة شاب مثله في العمل فقط.

وبينما كان عقله ينتقل من فكرة لأخرى، أحسّ بشعور لم يختبره من قبل أبداً. شعر كأن روبير وطارق كانا معه حتى قبل ولادتهما. وكأن ما حدث لهما في الحياة ومعه، تم في لحظة مركّزة في عمره لا أمس أو غد لها. كأن ابنيه ولدا معه وعاش ثلاثتهم في رحلة العمر سوياً.

ودخل روبير وكلمات الاعتذار ورائحة الدواء تسبق خطواته باتجاه أبيه الذي نهض من كرسيه وصافح ابنه بكل محبة واعتزاز، وهو يتأمله في رداء الأطباء الأبيض.

وبعد المصافحة، طلب الأب من ابنه أن يجلس خلف المكتب وليس أمامه، وأبدى روبير دهشته وحياءه من هذا الطلب، الذي فسره مجيد بأن الإنسان يكون بكامل نشاطه الذهني وهو في مكان عمله، وهو - الأب - يحتاج هذه الطاقة منه، لمساعدته على ما أتى من أجله.

ـ يقول المثل: إذا كبر ابنك اجعله أخاك.

ـ وأنا بقلب الاثنين معك.

ـ سأبدأ مباشرة: هل أنت مرتاح لما يحدث في أسرة أخيك؟

ـ لا. لكنه مسؤول عن أسرته وليس قاصراً لنفرض رأينا عليه.

ـ ـ صحيح. لكن تفكك هذه الأسرة سيوجعنا ويدخلنا في دائرة مشاكل، ستعيقنا عن أداء واجبات حياتنا بهدوء وحيوية.

ـ وكيف أستطيع المساعدة؟

ـ سؤال مهم، وأبدأ منه. ماذا يمكن طبياً أن يصيب عقل المرأة بعد الولادة غير السعادة بالمولود.

ـ حالة اكتئاب لا مبرر لها لمن هم حولها.

ـ هل هذا الكلام مؤكد؟

ـ نعم، وتوجد نسبة مئوية لهذه الحالة، لا أعرفها على وجه الدقة.

ـ روبير.. ماذا يمكن أن يحدث للإنسان إذا اضطرته ظروف حياته لتغيير نوعية عمله؟

ـ حالة خوف وارتباك.

ـ هل أنت شخصياً يمكنك أن تعمل وظيفة أخرى غير طبيب؟

ـ مستحيل.

ـ إذا كارول تعاني من اكتئاب وخوف وارتباك.

ـ هذا صحيح تماماً.

ـ هل يوجد علاج طبي لهذه الأمور؟

ـ الأفضل علاج الأسباب، لأن العقاقير لن تؤدي إلى نتيجة.

ـ حتى الاكتئاب؟

ـ الاكتئاب حالة عارضة عند كارول. يزورنا مرضى لديهم، كما يقولون، أوجاع في القلب، ونكتشف بعد الفحص أنهم يعانون من الاكتئاب.

ـ ما هو القلب؟ سأله مجيد وهو يبتسم.

ـ كلمة عاطفية أكثر من اللزوم، تعني أموراً أخرى أكثر من المضخة التي نعالجها. وكل العواطف والأفكار مصدرها العقل.

ـ وإذا عدنا لموضوعنا، ماذا ترى لعلاج كارول؟

ـ العمل. لكن ما هو الحل لعملها في حالتها الراهنة؟

ـ إنني أحاول الوصول لحل، ناقشت الجزء الطبي منه معك.

ـ وهل أفادك حديثنا الطبي؟

ـ كثيراً.

ولم يتكلم مجيد بعد ذلك، وبدا كأنه يفكر في الحوار الذي كان مع ابنه. وأحس روبير أن أباه اكتفى بما سمع.

وسأل مجيد بعد ذلك عن إمكانية رؤية المكان الذي انتظر فيه طارق ابنه أثناء الجراحة التي أجريت له، على رغم وجود حالة حرجة يتابعها. وردّ روبير بإمكانية ذلك لوجود جهاز معه يستقبل أي نداء له من القسم، وهو يتساءل في ما بينه وبين نفسه عن سبب هذه الرغبة.

نزلا بالمصعد إلى الطابق الأول السفلي تحت بناية المستشفى، وأشار روبير لأبيه إلى الغرفة التي انتظر أخوه فيها إجراء الجراحة للرضيع، وغرفة العمليات نفسها.

ـ كان الوقت نفسه تقريباً الذي نتكلم فيه الآن. قال مجيد لابنه.

ـ نعم.

ـ ومن المرجح أنه كان يتمشى ما بين هذا المكتب وغرفة العمليات.

ـ بسبب القلق على ابنه.

ـ هل كان ضرورياً أن ينتظر هنا؟

ـ لماذا؟

ـ تقول أن القلب كلمة تستخدم بمعان أكثر من المضخة التي تعالجونها.

ـ فهمت قصدك. كان الانتظار جزءاً من إجراءات كثيرة فعلها، ولم تكن كارول تعلم. كان الأفضل أن يرافق ابنه بدلاً من ممرضة.

ـ هل هناك أمور مقدورة على جسد الإنسان، مثل الذي حدث ليوسف.

ـ المكتوب في شفرة جيناته.

ـ كيف؟

ـ أنت مثلاً: مكتوب في شفرة جيناتك العمر الطويل والحيوية أثناء الشيخوخة.

ارتعش مجيد وهو يقول لابنه:

ـ تقسو ظروف الحياة على الإنسان أحياناً.. وعلى أية حال، المكان هنا له رهبته الخاصة حتى لو لم يكن المرء في انتظار أحد.

ـ نعم.. لكنني تعودت عليه.

ـ يجب أن أعود يا ابني وتصعد أنت إلى عملك.

ـ مع السلامة.

ـ بالمناسبة. متى تستطيع أن تشاركنا جلسة عائلية؟

ـ بعد غد مساء.

ـ اتفقنا.

أوصل روبير أباه إلى نهاية الردهة المتصلة بقاعات الاستقبال، وأصرّ مجيد على صعود ابنه إلى عمله.

ـ هل هناك أمور في الحياة تشبه شفرة الجينات المكتوبة هذه؟ همس مجيد لنفسه وهو يدير محرك سيارته باتجاه منزله.

أخبر مجيد كل فرد على حدة بأنهم سيجلسون معاً في العاشرة من مساء الغد حتى يكون الصغيرين قد ناما.

ـ لماذا؟ سأله طارق.

ـ أنت تعلم أهميتك عند الجميع.

ـ وهل ستجتمع الأسرة من أجل ذلك؟

ـ لا.. من أجل الاحتقان الموجود.

ـ وما شأنكم به؟ أو بمشكلتي على وجه الخصوص؟

ـ صحيح إنك رجل ناضج ومسؤول، لكن حتى رؤساء الدول عندهم مستشارون.

غادر مجيد غرفته في العاشرة مساء، ليتجه إلى غرفة الجلوس الكبيرة في الطابق الأرضي، وهو بكامل أناقته وقلبه يخفق. وبينما كان يتجه إليها، رجع خطوتين ووقف أمام صورة أبيه وأمه، وقال لهما:

ـ ألهماني بشيء هذه الليلة. أنا متوتر.

بدأ مجيد حديثه، بعد تحية الموجودين، إلى كارول،

وأفهمها أن عدم حضور أمها ليس انتقاصاً من قيمتها لديهم، لكن في حال فشلهم في الوصول إلى نتيجة ستكون معهم في المرة القادمة. وطلب منها أن تشرح له بالتحديد ماذا يحدث، بدون أن تقول رأي طارق.

وأخبرته بالدقة التي طلبها ما حدث، ومخاوفها من انهيار كل ما حلمت به، ومشت مشوارها المرهق من أجله.

وشرح طارق بعدها وجهة نظره في رفض عودتها إلى روما، رغم إنه خطبها وتزوجها بدون أي اعتراض على عملها خارج لبنان، وأكّد رفضه النهائي لسفرها بسبب تغيّر الظروف، مهما كانت النتائج.

ـ إذاً المشكلة بينكما ليست شخصية، أو عدم توافق أمزجتكما. المشكلة تحديداً هي عمل كارول.

ـ وأرجو أن يضحي طارق هذه المرة لأنها الأخيرة.

ـ لا يمكن. ستكون حياتها صعبة جداً مع الوليدين وهي وحيدة.

ـ قلت لك إن جليسة أطفال ستكون معهما أثناء غيابي.

حاولت والدة طارق التدخل، لكن مجيد أسكتها بحركة من يده.

ـ وهل ستسافرين بهما كل ثلاثة أسابيع من وإلى بيروت؟ ومع من سيكونان وأنت خارج روما في عمل؟

ـ .....

ـ وأنا أيضاً لا ردّ عندي سوى ما قلته.

ـ اجتمعنا اليوم لنصل إلى حل، وليس إلى طريق مسدود. ما رأي الباقين في هذه المشكلة؟ سأل مجيد.

أجمع روبير وأمه وجدته على صحة رأي طارق، واستحالة سفر كارول في ظروفها الحالية، وعدم مجازفتها بالرهان على الإدارة بعدم سفرها خارج روما وإيطاليا لتغطية المناسبات والمهرجانات، لأنها ببساطة قد ترفض، ومن حقها لأن مصلحة العمل تكون فوق الاعتبارات الإنسانية غالباً.

ـ ما رأي كارول في وجهات النظر هذه؟ سألها مجيد.

ـ صحيحة.. لكن أظن أن اسمي وما حققته من نجاح سيجعل الإدارة توافق، وهم يعلمون ظروفي هناك.

ـ لقد جعلتيني أصل إلى أصعب نقطة في الموضوع.

ـ قلها يا عمي.

ـ لماذا رفضت الإدراة نقلك إلى بيروت، وراهنت على خسارتك بدلاً من ربحك في شبكتهم؟

ـ لأن ذلك عبء على موازنة المؤسسة ككل.

ـ كيف؟

ـ لأنني سأعود مع برنامجي إلى بيروت، أو أبدأ برنامجاً آخر، سيحتاج إلى كلفة لنقله إلى مركز البث مباشرة في روما، وإذاعته منها إلى قارات أسيا وأوروبا وأفريقيا.

ـ ولماذا لا تضحي الشركة بذلك من أجل اسمك؟

ـ لأن الفضائيات تخسر مالياً، وهي ليست على استعداد لمزيد من الخسائر.

ـ تخسر؟ كنت أظنها تربح.

ـ مردود سوقها الإعلاني، لا يغطي حتى جزءاً من خسائرها.

ـ كيف كنت تشعرين بالأمان الوظيفي؟

ـ وأنا "على الهواء" في الأستوديو فقط. والموقت هو الدائم.

أسند مجيد رأسه على أصابع يده اليسرى المتكأة على ذراع الكرسي الذي يجلس عليه، وأغمض عينيه وهو يقول كلاماً غير مفهوم حتى لحماته أقرب الجالسين إليه. وصمت لفترة طويلة نسبياً لمجموعة من الناس تتناقش، وصمتوا هم بدورهم لإحساسهم أنهم وصلوا إلى طريق مغلق. ثم تكلم مجيد وهو بوضعيته نفسها.

ـ كم تكلّف ساعة up link كما تسمونها، من بيروت إلى روما؟

ـ كثيراً.
ـ أريد رقماً دقيقاً.
ـ خمسة آلاف دولار.
ـ وهل تشمل أجور العاملين؟
ـ نعم.
ـ وهل يمكن تأجير هذه الساعة؟
ـ لشركة إنتاج؟
ـ لنقل ذلك..
ـ ممكن.. بشرط توافق المضمون مع توجهات وأخلاقيات الشبكة.

فتح مجيد عينيه ومسح شعره بأصابعه التي كان يسند رأسه عليها، وعاد إلى جلسته الأولى.

ـ أعتقد إننا وصلنا إلى حل.
ـ كيف يا عمي؟
ـ هل لديك اعتراض بالمطلق على عمل كارول بعد الإنجاب؟ سأل مجيد ابنه طارق.
ـ في بيروت؟ لا بالتأكيد.
ـ ما أفكر فيه يا كارول هو استئجار "ساعة هواء" كل أسبوعين من بيروت، إلى روما، وتكونين أنت المسؤول أمامي عنها.
ـ وكيف ستغطي مصروفها؟ سألته كارول وهي تبتسم

وكأنها غير مصدقة ما تسمعه.

ـ ستدفعه شركتنا بدءاً من العام القادم مع أول حلقة تُبث، وسأقنع الشركة الأم بالدخول كراع أو بجزء من التكلفة معي بعد ذلك.

ـ هل هذا الكلام حقيقي؟

ـ إذا كان غيري لا يريد أن يراهن على موهبتك، أنا أراهن عليها.

ـ ولن تندم.

ـ أعلم ذلك. لكن ما هي حقوقنا في المادة المذاعة؟

ـ يبدو أنك تفهم كثيراً..

ـ هل نسيت أننا جزء من اللعبة الإعلانية في البلد؟

ـ المادة المذاعة ملكنا، ويمكننا بيعها لمحطة تلفزيونية أخرى بدون شعارهم على الشاشة.

ـ على أية حال، نحن متفقان على مشروعنا المستقبلي، وتبقى التفاصيل معك أنت شخصياً كمقدمة البرنامج، ومع محامي شركتنا الذي سيصمم الاتفاق مع محاميهم أو مديرهم.. لا أعلم.

ـ سأقدم فكرة جديدة تدور في بالي منذ فترة. فكرة يمكننا بيعها، لأنها لا تموت مع الوقت.

ـ وإذا نجحت سأقنع غيري من أعمدة اللعبة الإعلانية بالدخول معنا.

ساد سكون مريح بين أفراد الأسرة المجتمعة، وبدا كل منهم وكأنه لا يريد كسره بأي كلمة حتى لو كانت تصب في مصلحة الاتفاق، الذي يغيّر مجيد به مسار حياته للمرة الرابعة، وهو في سبعينات العمر، وينقذ الأسرة الصغيرة من تصدع خطير.

ونهضت لوس - المحبة المعجبة الدائمة بكارول - وتحركت باتجاه زوجة ابنها، وغادرت السيدتان غرفة الجلوس وهما ممسكتان ببعضهما بعضاً بمودة ظاهرة، وبدأتا التكلم بهمس بمجرد وصولهما إلى عتبة الباب.

وقال روبير لطارق بعد لحظات من خروج السيدتين:

ـ هيا بنا.. عندي شيء أريه لك.

ـ يا طارق..

نادى مجيد على ابنه، وهو وأخوه على باب الغرفة. والتفت طارق باتجاه أبيه.

ـ نعم.

ـ بدءاً من أول الشهر ستنتقل إلى قسم قطع الغيار حتى ساعة الغذاء، وبعدها وحتى وقت الانصراف ستكون مساعد مدير مكتبي لتعرف كل شيء فيه وتمارسه.

ـ اتفقنا.

ونظر مجيد إلى الجدة ماريسيلّا ونصف ابتسامة تستعد للاكتمال على شفتيه، وتابع ابنيه وهما يغادران.

ـ هل تشعر إنك تورطت بهذا الاتفاق المالي؟ سألته ماريسلّا وهي تتأمل نصف الابتسامة التي لا تريد أن تكتمل.

ـ مطلقاً. لقد نورتني كارول إلى سياسة مريبة كانت تتبعها معي كل شركات الإعلانات التي تعاملنا معها.

ـ كيف؟

ـ كنت أدفع ثمن صفحة ملوّنة في مجلة يزعمون أن الطبقة العليا في المجتمع تقرأها، بالثمن نفسه الذي سأستأجر به "ساعة هواء" يراها مشاهدون في عدة قارات.

ـ لكنك ستدفعه كل أسبوعين.

ـ وسمعتِ إنني سأطلب من الشركة الأم اعتبارنا معلنيين إقليميين وليس محليين ليشاركوننا كلفة إنتاج الحلقات.

ـ لكنك تبدو غير سعيد.

ـ بالعكس.

ـ مهموم؟

ـ أفكر في طرق الارتزاق وتغيّر أشكال وأسباب الهجرة هذه الأيام.

ـ كان طموح الإنسان أيام شبابنا العمل في عاصمة بلده.

ـ وأصبح عمل الإنسان أحيانا أهم من أسرته.

ـ أمر جديد.

ـ والأخطر أن المرأة دخلت هذه اللعبة.
ـ لأن الحياة أصبحت أكثر تعقيداً.
ـ كان المولود يُستقبل بفرحة خالصة، واليوم يُحبل به ويُستقبل بحسابات.
ـ ربما كنا نفعل ذلك لكننا نسينا.
ـ هل تتخيلين أن بعض الباعة عندي لا يقبضون معاشات شهرية؟ عمولات فقط.
ـ لماذا؟
ـ يأتي شاب ويقول لي إنه سيجلب مشترين للسيارات من وقت لآخر، ويريد عمولته فقط.
ـ ما يعني إنه ليس ابناً للمؤسسة.
ـ ولا يفهم حتى كيف تدور السيارة.
ـ ويبيع؟
ـ أكثر من المحترفين أحياناً.
ـ أمر غريب.
ـ إنه أستاذ في فن الإلقاء وليس في فهم السيارات.
ـ يبدو أن الطلة أصبحت أكثر أهمية من الموضوع.
ـ هل نحن كبرنا؟ أو أن اللذة ؛ لذة عمل أي شيء والانتماء أصبحتا في القواميس فقط؟
ردّت عليه ماريسلّا بعد لحظات من التأمل:
ـ الأفضل أن نقول إننا كبرنا.
ـ كبرنا؟ فقط كبرنا.
ـ هكذا ببساطة. وما العيب في ذلك؟